This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ركن مظلم

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من موقع بستان الكتب

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الكتاب : ركن مظلم

المؤلف : شيماء محمود

تصميم الغلاف : إسلام علام

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع : ٢٠٣٧٨/٢٠١٣

الترقيم الدولي : ٢-٣١-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨

الطبعه الاولي : ٢٠١٣

ن
للنشر
والتوزيع

٢٠ عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

ت-٣٥٨٦٠٣٧٢-٠٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

ركن مظلم

رواية ل

شيماء محمود

إهداء

إلى كل الأرواح المعذبة التي لا تعيش في سلام مع نفسها.

شيماء محمود

...

جلس صاحب المقهى العجوز على أحد الكراسي ليشرب قدحًا من الشاي، قبل أن يهمّ بلملمة كراسي المقهى ليغلقه قبل ذهابه لمنزله.

إنها الثالثة فجرًا.. ولن يأتي زبائن الآن، خاصة والكهرباء مقطوعة عن المنطقة بأكملها.

مرّ أمامه الشيخ العجوز الذي يؤذن دائمًا لصلاة الفجر:

– ألن تأتي للصلاة معنا أيها الرجل الطيب.

وضع صاحب المقهى قدح الشاي، وقام يصافح الشيخ قائلاً:

– بالطبع سآتي.. كنت أحتسي الشاي فقط قبل إغلاق المقهى.

سحب الشيخ كرسيًا وجلس..

– أحضر لي قدحًا إذن قبل أن يحين موعد الصلاة.

ابتسم صاحب المقهى، ولم تمض ثوانٍ حتى وضعه أمام الشيخ، ثم جلس جواره يحتسي قدحه.

– يبدو أنهم لم يصلحوا الكهرباء بعد؟

اعتدل صاحب المقهى، وأومأ برأسه:

– ثلاث ساعات كاملة.. وأنا أجلس على ضوء الشموع كما ترى.. انصرف الزبائن كلهم.. حتى من يسهرون كل ليلة في انتظار صلاة الفجر.

نظر له الشيخ بخبث:

– اشترِ مولداً أيها البخيل.

قهقة الرجل وهمّ بالرد..

لكن القدح سقط من يديه وانكسر عقب سماعهما لتلك الصرخة.

صرخة انبعثت من المبنى المقابل لهما، وسط هذا الظلام الدامس.

– أسمعت هذا؟

– نعم.. اللهم احفظنا!!

نظر له الشيخ متعجبًا.. فأضاف:

– هذا المنزل لم يقطنه أحد منذ أكثر من عشرين عامًا يا "سيدنا الشيخ".

– لعل أحدهم يستغل الظلام لعمل غير مشروع يا رجل.. هيا بنا لنرى ما يحدث هناك.

أمسك صاحب المقهى يد الشيخ وأجلسه، ثم نظر إليه متوسلاً:

– أنت لا تعلم هذه المنازل كما أعلمها أنا.. انسَ الأمر.. ولنذهب للصلاة.

– لا حول ولا قوة إلا باللّه.. ماذا إذا كان هناك شخص يحتاج للمساعدة؟!

أخذ الرجل ينتفض هازاً قدميه بتوتر، وهو يتلفت حوله:

– إنه منزل مسكون.. الكل يعرف تاريخه الأسود.. أرجوك لا تحاول الاقتراب منه.

وعندها تكرر صوت الصراخ مرة أخرى.

فانتفض الشيخ، وقال مصدقًا كلام الرجل:

– اللهم احفظنا.. هيا بنا.. هيا..

ألقى بقدح الشاي من يده، ثم ساعد صاحب المقهى في لملمة الكراسي، لينهيا العمل بسرعة ويذهبا للاحتماء بجدران بيت اللّه.

ربما لو كانت الكهرباء تعمل لترك صاحب المقهى المذياع على إذاعة القرآن الكريم.. رافعًا الصوت إلى حده الأقصى.. آملاً أن يصل للمنزل المقابل فتنصرف الكائنات الغريبة عنه.

لكن ما لم يعرفاه في ذلك الوقت أنهما ارتكبا غلطة؛ سيؤرقهما ضميرهما بسببها لسنوات قادمة.

فذلك المنزل لم يكن مسكونًا بالأشباح.

لم يكن وكرًا لملك من ملوك الجان.

ولم يكن مخبأ لمصاصي الدماء.

كان كما يصفه الشرطة أحيانًا بـ:

"مسرح الجريمة".

أو "شاهد الحدث".

هنا.. في هذا المنزل المكوّن من طابقين، المهجور منذ سنوات طويلة.

أخذ ذلك الشاب يطرق الأبواب ويصرخ طالبًا المساعدة.

يرتطم بالأبواب علّها تُفتح.

يصدم رأسه بالجدران.

يتوسل للجميع أن يسمعوه.. أن ينقذوه.. أن يخرجوه من ذلك المكان.

ينظر للسقف صارخًا آملاً أن يصل صوته لملائكة السماء.

لكنه في النهاية يأس، وجلس يحاول لملمة شتات نفسه في ركن الغرفة المظلم.

*****

أترك لك هذه الرسالة أيها القذر.. سأملأ جدرانك بخطي حتى لا تنسى وجهي، ففي كل انحناءة من انحناءات حروفي ستراني.. سأرفع صوتي بالكلمات التي أخطها، حتى إذا رأيتها فيما بعد تذكرت صوتي.. تذكرت صراخي بها يعلو من الغرفة التي سجنتني فيها.

لست أعلم أين أنا.. ولا أعلم الوقت.. لكني أعلم أن صوتي يصلك.

حبسي هنا ليس أسوأ شيء حدث لي في حياتي، فلا تفرح كثيرًا.. لقد مررت بالأسوأ.. وسأخبرك به.. بكل تفاصيله وكل رعشة مرت عليّ خلاله!

ولا تلمني على ذلك.. أنت من قرر حبسي هنا.. ويجب عليّ أن أجد وسيلة لأقتل بها وقت فراغي.. أليس كذلك؟

عليّ أن أترك وصيتي وقصة حياتي.. يومياتي وأحلامي المحطمة وآلامي.. ربما تكون عظة لك أو لغيرك.. ربما يجعلها أحدهم متحفًا ويأتي لزيارتها بتبجيل واحترام.

فنحن نقدّس آلام من ماتوا.. ولا نلتفت لتوسلات الأحياء.

لعلك تظن أنني الشخص المثالي الذي سرق منك حبيبتك وتزوجها، وهو ينظر إليها سعيداً بأنها لن تكون لغيره بعد اليوم!!

إن حياتي بعيدة كل البعد عن المثالية.. لكن ما أدراك أنت.. فلست إلا طفلاً مدللاً يغضب حسرة على فقدان حبيبته!!

ربما تكتب أشعارًا أو ترفع المذياع بأغنية حزينة لتؤهل نفسك للبكاء.

ولكن ما أدراني أنا.. ربما كنت مثلي ملعون الخطى والحظ!!

لن آتسرع بالحكم عليك قبل معرفتك كما حكمت عليّ.. أتدري ماذا؟

سأسحب كل كلمة وفكرة سيئة جالت في ذهنى تجاهك.

لنبدأ صفحة جديدة.. على هذه الجدران.

مرحبًا.. سجّاني العزيز.

أتدري.. هذه الغرفة المظلمة بأركانها الأربعة تعيد لي العديد من الذكريات.

كم مرة حُبست في غرفة لا يدخلها الضوء؟

إنه عدد لا ينبغي إحصاؤه.

كما لا ينبغي إحصاء مرات سقوطك عندما كنت تحاول السير في طفولتك.

ولكن الأطفال لا ييأسون.

يقولون في الطفولة أقاويل كثيرة.. لكننا كلما كبرنا كلما ضربنا بذكرياتنا ومشاعرنا القديمة عرض الحائط.. وأنكرنا وجودها.

أو ربما صارت لدينا مشاعر أقوى.. مشاكل أكبر.. ذكريات جديدة أزاحت القديمة عن منزلتها.

لكن لطفولتي لحن جنائزي خاص في ذاكرتي.

وربما يلعب الظلام حِيلاً معي.. لكني أقسم أنني حين أنظر إلى الركن المقابل أراه يجلس في الظلام.. ينظر إليّ بعينين مغرورقتين بالفزع، يتوسل إليّ أن أرحمه.

طفل صغير كغيره من الأطفال.. لا يميزه عن البنات في سنه غير ثيابه الصبيانية وشعره القصير وخلو أذنيه من الأقراط.. تلميذ متفوق على زملائه في المدرسة؛ لأن والدته تهتمّ بتحفيظه كل كلمة تلقيها على أذنيه مدرسته ويضعها أمامه كتابه الصغير.

والدته طيبة القلب.. بشوشة الوجه، يحبها الجميع.. كغيرها من الأمهات.

والده أب مثل كل الآباء أيضًا.. رجل يكد ويتعب في عمله ثم يعود لمنزله في المساء، متوسلاً أن تحمل رائحة المنزل العميقة له السكينة والهدوء.

يكون الجو حميميًا سعيداً هادئًا، وبمجرد أن تُتكتك مفاتيحه في قفل الباب حتى ينتفض الجميع، وتحوم سحابة سوداء في صدورهم، ويملؤها البرد.

يمتلئ البيت بصوته العالي وصراخه الدائم وغضبه.. بينما تمتلئ عينا أم الصبي الطيبة بالدموع، ويمتلئ وجه أخته الكبرى بالأصابع الحمراء.

قالت أمه مرة له ولأخته أن والدهما مريض.. ومرهق.. وأشياء أخرى لا يدري إن كانت صحيحة أم أن أمه تختلقها كأعذار لظل الرجل الذي تفضله عن ظل الجدار، الذي تعلم أنها لن تجده أصلاً إذا طلبت الطلاق في يوم من الأيام.

أتعلم أن الأطفال يخافون الظل بكل صوره؟

يخافونه في الصباح حين يرسم أشكالاً على الجدران، تشبه الأصابع الطويلة لأشجار الغابات في قصص الأشباح.

يكرهونه حين يسقط ظل شجرة من تلك الغابات على الستائر، فيُصور لهم خيالهم شخصًا ما يقف وراءها.. إنه اللص، عليّ أن أقاتله.. فإذا تشجع الطفل وأزاح الستارة ليرى ذلك الشخص ولا يجده، فهنا يعود الخوف من الأشباح ليحتل الصدراة مرة أخرى!

وعندها يأتي المساء.. ويصر والده ووالدته أن ينام بمفرده في غرفته لأنه أصبح رجلاً.. والرجال ينامون في غرفهم.. وهذا يعني أن ينسلخ من بين يدي

والدته حيث الأمان.. إلى مكان آخر قد تقتنصه فيه الأشباح التي رآها في الصباح.

ولكن الأشباح لا تقتنصه.. هي فقط تترصده بعيونها وأسنانها، وأفواهها المفتوحة الشرهة لالتهامه حين يغمض عينيه!

يرى وجوههم جميعًا في الملابس المعلقة خلف الباب.. وأجسادهم في الستائر المرفرفة مع هبوب نسيم الليل.. ويسمع أصواتهم في أزيز زجاج النافذة.. يراهم يقفون خلفه حين ينظر في المرآة المقابلة لفراشه.. يتربصون.. وينتظرون.

ينتظرون أن يأتيه النوم اللعين فتتحرك الأشباح من أماكنها.. تقترب منه ببطء، ثم تسحبه من يده ليذهب معهم في رحلة مجهولة، لا يتذكر منها أي شيء حين توقظه ابتسامة أخته في الصباح.

هكذا كانت الأيام والمخاوف تتكرر بتتابع سلس.

لكن دوام الحال من المحال.

اختلف الحال تمامًا في ذلك اليوم.. لم توقظه ابتسامة أخته.. بل أيقظته صرختها التي هزت أركان البيت بأكمله.

فتح عينيه فاكتشف أن الوقت مازال ليلاً، وأن غرفته تغرق في الظلام.. كأن القمر أقسم على ألا يضيء ليلتها.. كأن صرخة أخته حطمت مصابيح أعمدة الإنارة خارج نافذته.

ارتعد قلبه بين ضلوعه وجلس في مكانه، ينتفخ قفصه الصدري ثم ينكمش.

الهدوء التام شل حركته.. إذا كانت أخته خافت من شيء ما، كانت أمه لتجوب المنزل الآن لتهدئتها.. كان سيسمع صوت والدته وأخته، وربما والده أيضًا.

لكنه لم يسمع أي شيء.. فقط صوت الصمت المطبق الذي يكرهه.. يصمّ أذنيه صوت الصفير.. صوت الموتى في القبور.. لكم تمنى أن تنتفض قطة في الشارع وتموء لتكسر ذلك الصفير.

ربما كان الأمر كله مجرد حلم.. أو كابوس!

بعد قليل سمع صوت أقدام تتهادى.. تسير ببطء كأنها لا تريد له أن يكتشف اقترابها.. أهم لصوص؟!

صار الخوف من اللصوص الآن يحتل مرتبة الصدارة.. لدرجة أنه توسل للأشباح بصوت هامس أن يحموه من اللصوص، ثم سيتركهم يأخذونه معهم أينما يريدون.

كانت والدته دائمًا تقول له ألا يترك الباب مفتوحًا كي لا يدخل لص ما إلى المنزل.. وألا ينزل بمفرده دون أن يخبرها حتى لا يختطفه اللص نفسه!

كان يسمع ويرى في التفاز صور اللصوص الذين اقتحموا منزلاً ما وقتلوا قاطنيه، فيبكي وينتفض بينما تضحك أخته عليه.. حينها تغيّر والدته المحطة وتنحني لتقبله وتطمئنه أنهم لن يأتوا.. ثم تقول له حتى إذا اقتحموا المنزل.. اختبئ.. أو اركض إلى ذراعيّ، فلن يصيبك مكروه بينهما.

لقد كذبت أمه.. إنهم هناك على باب غرفته.. يكاد يراهم يمسكون المقبض ويديرونه مع عقارب الساعة.. عليه أن يختبئ بين ذراعيّ والدته.. لكن أين هي الآن؟

قفز من أعلى الفراش إلى أسفله.. إنه ركن مظلم بارد، ذو أرضية صلبة من مربعات متلاصقة مزركشة الألوان.. لكنه المكان الوحيد الصالح للاختباء في غرفة صبي صغير.. لذلك كتم أنفاسه وانتظر...

انفتح الباب وتسلل بعض الضوء من خارج الغرفة.. ضوء بارد أبيض يغلف هيكلاً أسود لرجل يمسك مقبض الباب بيد ويخفي يده الأخرى خلف ظهره.

أتراه يحمل سلاحًا ما؟

لكن لا وقت للتساؤل.. إنه يقترب من الفراش بنفس الخطى.. يرتدي جوربًا في قدميه.. يبدو أنه حقًا لا يريد أن يسمع أحد صوت خطواته المتسللة.. على اللصوص جميعًا أن يفعلوا هذا.. حتى لا ينتبه أحد إلى وجودهم في منزله.

أخذ يقترب من مكان اختباء الفتى، الذي تزداد برودة الهواء حوله لتتجمد أطرافه.. بينما يتقافز قلبه وتُعتصر أنفاسه، كأنها تمر في خندق قبل أن تصل إلى رئتيه.

وقف الرجل عند الفراش ورفع الأغطية يبحث عن الصبي.. هل سينظر أسفل السرير؟

بعد لحظات اعتدل الرجل وأدار ظهره وهمّ بالانصراف.. ويداه خلف ظهره الذي أصبح مواجهًا للصبي.. عندها مرت من أمام الصبي كرة لامعة دقيقة الحجم تسقط من أعلى وترتطم بالأرض، ناثرة كرات أخرى أصغر حجمًا منها.. صانعة بقعة مستديرة متناثرة الأجزاء.

أوشك الرجل على الخروج من الغرفة عندما مرت سيارة مسرعة في الشارع بأضواء باهرة أضاءت الغرفة للحظة، ذكرت الصبي بعمود الإنارة الذي أضاء سيارتهم وهي تسير على الطريق ليلاً بضوء برتقالي متحرك يجول السيارة، ثم يختفي ليأتي العمود التالي صانعًا نفس الضوء المتحرك، الذي

يشبه أضواء الطائرات التي تبحث عن اللص الهارب في الأفلام.. ربما يبحث عمود الإنارة عن جنديه الصغير.. لذلك كان يخبئه خوفًا عليه.. لكن الضوء عندما تحرك هذه المرة لم ير جنديه البلاستيكي بأسلحته البراقة يلتمع في الضوء البرتقالى لأعمدة الإنارة.. بل رأى سكين الرجل تلتمع بضوء أحمر قانٍ!!

شهق الفتى وأحس بالدفء ينسال على وجنتيه ونصفه السفلي.

قالت له والدته ألا يشرب ماءً كثيرًا قبل النوم حتى لا يبلل فراشه.

آسف أمي، بللت أسفل الفراش هذه المرة!

لكن أين هي أمي؟

لقد اختبأ.. والآن عليه أن يبحث عن ذراعيّ والدته.

انتظر لحظات حتى ابتعد وقع أقدام الرجل بجواربه.. فانتفض وأسرع الخطى خارج الغرفة.. لقد سار الرجل مبتعدًا عن غرفة والديه لحسن حظه.

حاول أن يكون هادئًا.. لكنى إذا كنتُ معه في تلك اللحظة كنت سأنصحه بالبقاء أسفل فراشه.. فيدا والدته أبرد من ركنه المظلم ذاك.

تسلل إلى غرفة والديه فقد كان الباب مفتوحًا.. لحسن حظه.

لمح والدته نائمة فتسلق فراشها العالي وجلس إلى جوارها.. لماذا يغط المنزل في الظلام الدامس؟!

أخذ يهزها مناديًا عليها بصوت خفيض.. ليس هذا وقت الأحلام أمي.. استيقظي وخذيني بين يديك.. إنهم اللصوص!

هيا أمي.. هيااااا!!

لكن صوتًا آخر دافئًا جاء من وراء ظهره.

صغيري، لماذا توقظ أمك؟ إنها نائمة والوقت متأخرا!

صاح الصبي بصوت خفيض.. أبي.. أبي.. ثم عاد يغمر وجهه بالدموع.. إنهم اللصوص.

أشار إليه والده.. هششش، لا تقلق يا صغيري لا يوجد لصوص في المنزل.. هيا لا تبكِ، فالرجال لا يبكون.

قال الصبي إنه ربما نسي الباب مفتوحًا فدخلوا.. اقترب منه والده، وقال إنه أغلق الباب جيداً ولن يستطيع أحد الدخول.

عندها قفز الصبي بين ذراعيّ والده.. إنه دافئ محب وحنون.. إنه أفضل من والدته التي لا تريد أن تستيقظ ليحتمي بذراعيها.

هذا كله كابوس.. كله حلم مزعج سيستيقظ منه بفراش مبتل!

هذا كل شيء!

أحس الصبي بلزوجة في يديه، فحدق النظر إليهما وهو بين ذراعيّ والده، فإذا بهما قاتمتا اللون!

فجأة انتفض لسماع صوت طرقات على باب المنزل.. طرقات متتالية عالية، وضوضاء تأتي من خلفها..

أبي إنهم اللصوص.. قلت لك.. لقد رأيت أحدهم في غرفتي يحمل سكينًا كبيرة.

فهمس والده.. أن لا تخف يا صغيرى.

واحتضنه والده بقوة أكبر.. فأحس الفتى بشيء بارد يقتحم جسده بهدوء..

كأن الهواء يتسرب إلى داخل جسده.. إن الطرقات تزداد.. والشيء البارد يتوغل في جسده أكثر..

بدأت رؤيته تزداد قتامة.

انكسر الباب، هذا كان آخر ما سمعه.. رأى آناسًا يقتربون.. همس.. أبي إنهم.. اللصوص.. حاول أن يتشبث بوالده أكثر، لكن المقتحمين سلخوهما من بعضهما.. عندها أحس الصبي بألم في بطنه وبرودة أكثر تتسلل إليها.. سرت البرودة في أطرافه كقوافل من النمل.. وبدأت رؤيته تضمحل.. لكنه استطاع أن يرى الشيء البارد مستقرًا في يد والده.. يقطر كرات لامعة صغيرة.. وسقط على الفراش ببطء كأنه يطفو في الهواء.. كأنه رائد فضاء يسير على ظهر القمر بيزته المثقلة الباردة.. يسقط بلا جاذبية.. رأى وجوهًا كثيرة حوله لكنه نسيها جميعًا.. إلا نظرة غريبة لا يعلم معناها، كانت مستقرة على وجه أبيه!

*****

استيقظت اليوم على وقع أقدامك وصوت ضحكاتك.

لا أدري لماذا انتفض جسدي كأنه صُعق بشحنة كهربائية عالية.

ربما هو نقص الماء.. فأنا لا أدري كم يومًا يعيش الإنسان بلا ماء.

لن أفي بوعدي وأرفع صوتي بكل الكلمات، لأني أشعر بالإرهاق الشديد.

أفكاري مشوشة، وأحس بأن هناك ضوءاً لا أدري من أين أتى، ولا إلى أين يذهب.. لكني أريد أن أحطم مصدره لأن عينيّ لا تحتملانه.

أشعر كأني مدمن، أو شخص أطاحت به سكرته.. لماذا أتحسس من أشياء كهذه؟

لا أريد رؤية الضوء، سأتجاهل وجوده.

كما أتجاهل وجود كل أجزاء ذاكرتي.

لكنى لن أتجاهل وجود هذه الجدران.. بل سأحتمي بها.. كل أسرتي تحتمي بجدران وتستظل بظلها.

أمي وأختي بين جدران قبرهما.

وأبي بين جدران المشفى العقلي.. لا يزال على قيد الحياة يتلقى الصدمات الكهربائية، ويرسل لي كروت المعايدة التي لا تحوي إلا جملة واحدة:

حظًا سعيداً في المرة القادمة!

الجميع ينزعج من هذه الجملة، عندما يفتح كيساً أو علبة لمنتج قالوا إنهم ملأوه بالهدايا؛ ليجد به الكروت المعتادة.. حظًا سعيداً في المرة القادمة.

لكنها تثير خوفي لا انزعاجي.. تذكرني بأبي، الذي لم ولن تنفع معه علاجات المشافي وأدوية الاختلال

العقلي.

لماذا قُدّر لي أن أجوب طرقات عمري مع المجانين؟!

أيشعرون أني على شفا الجنون مثلهم فينجذبون إليّ؟

أم تُراني مجنون بالفطرة؟

كنت يتيمًا وحيدًا شريدًا يقضي حياته على مكتبه.. يستذكر.. ثم يستذكر.. ثم يعمل.. ثم يعمل مرة أخرى.. ثم ينام فيجد الكوابيس تطارده.

أنا دائمًا أخاف حتى من انعكاس صورتي في المرآة.

أقف أمام المرآة.. أنظر إلى انعكاسي الذي اسودت أجفانه، وانعكست نظرتي الهلعة عليه، كأنها ابتسامة مختل عقلي يحمل نظرة لم ولن أفهم معناها.

لكنها تُشعرني برغبة هائلة للتواصل معه.. ولكن أي لغة يفهم؟

أضع يدي على المرآة فأجد سطحها يتموج.. كأن حجرًا سقط في بحيرة، فصنع دوائر متسلسلة.. عندها تلتقي يدي بيده.. عندها يأخذني من يدي لأعبر خلال المرآة.

فأخطو إلى داخل إطارها تابعًا إياه.. لكنه دائمًا يختفي بمجرد عبوري!!
أتراه يستدرجني ليبقيني حبيسًا خلف زجاج المرآة؟

لكني لا أكترث، فالعبور خلال المرآة إحساس رائع.

كأنك تقتحم قلب مادة جيلاتينية.. يختفي الهواء.. لكنك لا تحتاجه.. تشعر بنعومة الفراغ البارد حولك، تشعر كأنك تسبح في البحور، أو تطير بين سحاب ناعم الملمس، رغم أنك متأكد أن قدميك تلمسان أرضًا صلبة تحتك.. كأنك طائر لا يخشى السقوط لأنه لا يطير أصلاً.. لكن كل ما حوله يوحي بأنه محلق في أعالى السماء.

هو ليس عبورًا خلال المرآة.. بل هو عبور إلى بُعد آخر جديد.. لم تطأه قدم بشر من قبل.

لا يوجد أي شيء حولك.. فراغ تام مصطبغ بلون متموج بين الأزرق والفضي.

كأنها سماء ليلية دخانية خالية من النجوم.

تشعر بالسعادة والألفة والأمان.

وعندها يزداد البرد من حولك.. وتجد جسدًا دخانيًا يتشكل في الفراغ أمامك.

يقف دون حراك أمامك.. ثم يبتسم ابتسامته المعهودة.

عندها تشعر بدفء غريب يتسلل إلى جلد بطنك.

وعندما تنظر إليها تجد ثيابك البيضاء قد اصطبغت بلون الدماء القاني.

أضع يدي على الجرح محاولاً إيقاف النزيف، فإذا بكرات من الدماء تخرج من بين أصابعي لتطفو في الفراغ حولي.. كأنها كرات صغيرة من الفِلّين تدفعها نسمات الهواء.

وأجد نفسي أفقد اتزاني.. وأسقط إلى الوراء.. بلا جاذبية..سقوط هادئ بطيء.. يزول معه الدخان.. ثم يزول الفراغ بالكامل.. ثم أشعر بخشونة الهواء من حولي.. ثم يرتطم جسدي بسطح فراشي المبلل بالعرق.

حينها أدرك أنني قد استيقظت أخيراً.

هكذا اعتدت هذه الرحلة اليومية إلى عالم المرايا.. وبين تكرارها ومحاولتي تناسيها يقع الاستذكار والتفكير في المستقبل.. فقدت الماضي.. ركز في المستقبل لعله يحمل شيئًا أفضل.

وهناك كانت هي.. بجسدها الصغير وقلبها الكبير.

إنها عائلتي! إنها مستقبلي.

عندما رأيتها أول مرة معي في الجامعة لفتني جمالها.. لكن شخصيتها حيرتني كثيراً.. صرنا أصدقاء نتحادث طوال اليوم.. ندرس معًا ونتسامر معًا.

أذكر أول مرة لمست فيها يدها.

بيضاء دقيقة الأصابع ناعمة الملمس.. شعرت كأنني أغسل ذنوبي وخطاياي بين أصابعها، في معبدها وبين قصورها!

شعرت أنني راهب في التبت يتضرع للطبيعة لتفرغ عليه من نظراتها، ويضطرب قلبه كلما تهادت نظراته على شفتيها.

ورديتان ناعمتان براقتان.

شهوة الفاكهة المحرمة في جنة الخلد.. لو كنت آدم وكانت هذه هي الشجرة المحرمة لما ندمت على قطف ثمارها، حتى لو كان عقابي القذف إلى أعماق الفضاء بلا وسيلة للتنفس.

قلت لها أحبك، فابتسمت وتورد وجهها!

فعرفتُ أن الجواب مماثل.. ولم يهدأ لي بال حتى جلست إلى جواري، بثوبها الأبيض وابتسامتها المضطربة وقلبها الراقص.

قصة كل الأفلام الرومانسية الرخيصة، التي لا تتغير من جيل إلى جيل.

أتريد أن تعاقبني على الحنان الوحيد الذي تلقيته في حياتي.. على الصداقة والحب والأمومة والأخوة والإشفاق؟

لم يُقدّر لي أن أحظى بالكثير من هؤلاء حتى قابلتها.

فأنا لم أكن ممن يندمجون بين الناس.

عشت وحيداً لا أملك إلا صديقًا واحداً، استطاع تحمل تقلبات مزاجي دون تذمر.

أتعرف صديقي الوحيد هذا؟

النموذج المثالي.. ذلك المتفوق الهادئ الذي ينصحك دائمًا أن تبتعد عن المتاعب.

شخصية مثالية تضعها أمامك قدوة لك.

عندما تضيق بك الأيام تقول صديقي وحيد مثلي، ومع ذلك يعيش حياته بطريقة طبيعية ولا تؤرقه كوابيس طفولته.

نظيف منظم، إذا سقطت حبة تراب على ثيابه تقف في حياء.

يأخذني إلى الأوبرا، ويجلس مستمتعًا وهو يفهم كل ما يقولونه.

يطهو الطعام باحتراف الفنادق التي تحمل خمسة أو سبعة نجوم.

لا مجال لمقارنته بشاب همجي يعيش بلا أسرة، تقول له نظّف غرفتك.. هات ثوبك لأغسله لك.. ماذا تريد أن تتناول على الغداء؟

لم أكن يتيمًا.. فاليتامى يسكنون الملاجئ.

لديّ عمة قالت إنها ستعتني بي.. صغيري لا تخف.. عمتك معك.. اعتبر أن والدتك لم تمت.. اعتبرني والدتك، عزيزي.

لكنها بعد عدة أعوام تركتني وحيداً وسافرت مع زوجها خارج حدود البلاد، ولم يعودا أبداً.. وبقيت أنا في منزلهما البارد الخاوي!

كان صديقي يعيش تقريبًا نفس حياتي.. لكن والدته المصابة بالشلل كانت تعيش معه.

هادئة كالنسيم، غالبًا ما كنت أنسى وجودها في المنزل أصلاً.

تبًا للأركان المظلمة.. لماذا لا يهتك سترها الشعاع القادم من اللامكان الآن؟

أريد أن أرى وجه صديقي!!

فخيالي الواسع يرسم لي صورة جسده قابعًا في ركن الغرفة المقابل.

ترى هل يجلس هناك حقًا؟

ترى هل يحمل وجهه نفس الابتسامة الغامضة؟

هل يجلس نفس جلسته المعتادة؟ فيمد ساقًا ويرفع الأخرى لتعانق صدره.. يُرخي ذراعيه على الأرض جواره، ويُسند ظهره إلى الشجرة حين نحتمي بظلها من أشعة الشمس الحادة.

كان يُداعب بأصابعه العشب وهو سارح في الأفق البعيد.

أتذكر يوم قابلت والدته وجهًا لوجه للمرة الأولى.

سيدة رائعة هادئة..

صباح ذلك اليوم كنا معًا في الجامعة.. وكان هو مليئًا بالإيجابية على غير عادته، يلقي النكات على الجميع ويتضاحك معهم.

كنت أنا هادئًا كعادتي، فلم أكن أعرف من طلاب الجامعة غيره، ولم أكن، ولن أكون، ممن يتحادثون مع الغرباء ويندمجون معهم.

أشعر دائمًا أن هناك من يطل من وراء ظهري ليعايرني بطفولتي.

كأني أخشى أن أقرّب أحدهم إليّ.. فيعرف مكنون قلبي.. ويخاف مني أو يشفق عليّ.. فينظر إليّ دائمًا نظرة المرتاب.. ويتحادث معي كجرّاح مخ يجري عملية دقيقة، ويخشى أن يدق وترًا أو خلية خاطئة فيفشل في مسعاه ويموت المريض.

لهذا استغرقني الأمر وقتًا طويلاً حتى تقربت من صديقي هذا.. واستغرقني الأمر وقتًا أطول لأتقرب من الفتاة التي أحببتها فأصبحت زوجتي.

ولهذا كان هذا الصديق هو أغلى شخص لدي.

ولكنه كان هناك يقف ويتحدث في ثقة فأضحك مع الضاحكين.

لم تكن هذه عادته، لذلك في طريقنا إلى المحاضرة استفسرت ملاوعًا عن سر الإشراقة والتفاؤل المفاجئ.. فنظر إليّ وابتسم ابتسامته الجانبية تلك، قائلاً إنه يشعر أن هذا اليوم هو أسعد أيام حياته.

لم أستفسر أكثر، فلم يكن هناك وقت.. انتهت المحاضرة فانصرف سريعًا قائلاً إن أحد زملائنا وعده بشرح أحد الأجزاء الصعبة، التي لم نتمكن من فهمها المحاضرة الماضية.. وأنه حين يفهمه سيشرحه لي، لذلك عليه أن يذهب.. وحمل كتبه وركض بعيداً، فسقطت منه مفاتيحه.

حاولت الذهاب خلفه لكن الازدحام حال دوننا.

اتصلت به فلم يرد على هاتفه.. عندها وجدت أن الحل الوحيد هو أن آخذ المفاتيح وأذهب إلى منزله، وأنتظره هناك كي أفتح له الباب عندما يعود.

وبمجرد دخولي إلى المنزل أحسست بذلك الهاجس الذي يطالبك دائمًا بالرحيل السريع.. كأن أمرًا ما يحدث في منزلك أو في سيارتك أو لابنك، وأن عليك أن تذهب إليهم حالاً.

كان قد ترك كل الغرف مضاءة كعادته، التي يفسرها بأنه يكره أن يرى خيالات الإضاءة الضعيفة.. وكان صوت التلفاز في غرفة والدته عاليًا كالعادة.

كان الهاجس في داخلي يأكلني آكلاً، فلم أستطع الجلوس.. كنت أرمق الساعة وظهري مواجه لباب المنزل.. أتوسل إليه أن يأتي سريعًا.

لكن بعد عشر دقائق أصابني الملل الذي يصيب أي طالب جامعة شاب.. فقررت أن أحرك قدميّ قليلاً ذهابًا وإيابًا في غرفة المعيشة.

لكن ذلك لم يستمر لأكثر من دقيقتين.

كان باب غرفة والدته مفتوحًا مواجهًا للتلفاز، وهي تجلس على كرسيها أمام التلفاز كالعادة.. مولية ظهرها لي.. لم أر وجهها قط.

وعندها يأتي دور الفضول الذي قتل كائنات حية كثيرة قبلي.

طرقت الباب ودخلت الغرفة.

سعلتُ مرتين ثم قلت إنني صديق ابنها الذي يأتي معه دائمًا.. وأنني فقط أريد أن أعلم إن كانت تحتاج أي شيء.

بالطبع لم ترد عليّ، إنها مصابة بالشلل الكامل.

استمررت في السير إلى أن وصلت إلى الجدار، حيث يستقر التلفاز على طاولة كبيرة تشبه مكتبي

الصغير في المنزل، لكنها ضعف حجمه تقريبًا.. وعندها توقفت والتفتُ إليها واضعًا نظري في الأرض كنوع من أنواع الأدب والتهذيب.

هكذا علمتني أمي في طفولتي التي لم تستمر طويلاً.

لكن تبًا للأدب والتهذيب.. لن أقاوم فضولي طويلاً.

فرفعت نظري إليها مضيفًا أن تعتبرني كابنها و...

*****

يقولون إن الوحدة تسبب الهلاوس!!

أتّراني أهلوس الآن؟

ربما لست موجوداً في هذه الغرفة المظلمة؟

ربما أنا الآن على أريكة منزلنا أشاهد التلفاز مع زوجتي، وأضع يدي كل لحظة على بطنها لأطمئن إلى ركلات طفلي الصغير الذي ينموا داخلها.

لا أعرف جنس الجنين، لكني أتمنى أن تكون فتاة في جمال والدتها.. تحمل اسم أختي الكبرى، ويكون حظها أوفر من حظنا جميعًا.

كم من مرة تمنيت آن يكون لدي مسدس فآنهي حياتي في لحظة ضعف فريدة.

ولكم من مرة تكررت هذه اللحظات.

يوم كنت في منزل صديقي راودني هذا الهاجس والشره للحظة الضعف تلك.

لكن لأكون منصفًا.. كنت متردداً بين الخوف على نفسي والخوف منه والحقد على قدري، الذي يضعني في هذه المواقف مرة تلو الأخرى.. ولكن الإحساس الغالب كان الصدمة!!

حب واحترام وتقدير وأخوة.. تتحول في لحظة إلى خنجر في الضلوع، كما يقول "عبد الحليم"، خنجر ينخر في زوايا صدرك ويحفر تعويذات ولعنات على ضلوعك.

وعندها اختبأت من الصدمة إليها.. كنت عند قدميّ والدته.. أخفي وجهي بين يديّ وأبكي كطفل صغير.. عندها لمحته يمر من أمام الباب.

سمعت صوته يناديني.

هل أهلوس؟ أم.. هل رآني؟

بل.. متى عاد؟! أنا لم أسمع صوت المفاتيح في الباب!!

ربما لأن صوت التلفاز عالٍ؟

بل كيف دخل ومفاتيحه في يدي؟!

لا وقت للأسئلة!

إن جسدي في تجويف الطاولة تقريبًا الآن.

ركن مظلم يداري الزائر الطفيلي، الذي جاء ليروي فضوله ويسرق نظرة إلى آثار الفرعون فأصابته اللعنة.

لن أطيل عليك شرح تفاصيل أعراض ما شعرت به من رعب..

مثل دقات قلبك التي تدق عنقك ورأسك.

وبرودة الأطراف.. والخيالات التي يصورها لك عقلك، فترى كل أفلام الرعب التي نسجها خيال البشرية تمر أمام عينيك وتتجسد في كل خلية من خلايا الهواء حولك.

كل ما سأقوله لك..

أنك إذا أصبت بلعنة كهذه يومًا ما، فاتبع التعليمات التالية..

أولاً: ضع في اعتبارك أن الأمر قد يكون فخًا.. أي أن صديقك كان ينتظرك منذ البداية في منزله.

ثانيًا: إذا اختبأت في مكان اختره مكانًا مريحًا.. وليس تحت قدميّ دمية مشوهة مغطاة بجلد بشري.. ترى. .أهذا جلد أمه؟!

ثالثًا: إذا شعرت بعدم الراحة وقررت الركض ناحية الباب.. تأكد أولاً أنه لا ينتظرك خلف ستائر غرفة المعيشة.

رابعًا: عندما تفيق من ارتطامة ذلك الشيء الصلب برأسك.. وتجد نفسك في غرفة عازلة للصوت، تحمل طابعًا قوطيًا كغرف التعذيب في قصص وأفلام دراكولا.. لا تستغرب.

خامسًا: لا تحاول النهوض، فقد ربط عنقك بسلسلة حديدية ووضع قفلاً صلبًا عليها.

سادسًا: أتمنى ألا يواجه أحد هذا الموقف الذي كنت أظن أنه لا يحدث إلا في أفلام الرعب الغربي.. حيث مصاصي الدماء وآكلي لحوم البشر والمستذئبين.. لكن يبدو أن الأمر ليس مرتبطًا ببلد محدد أو ثقافة معينة..

سابعًا: كلا، صديقي ليس مصاص دماء بالطبع.. لكنه يتلذذ بطعم لحوم البشر.

سأضع علامات تعجب هنا!!!!!!!!!!!!!!!!

ومرة أخرى هنا!!!!!!!!!!!!

لم يكن حظي سيئًا.. كنت دائمًا موفقًا سعيداً بحياتي الوحيدة.. نعم أعاني بعض المشاكل والعُقد النفسية.. لكن حظي كان جيداً.. لا بأس به.. هذا للمؤمنين بالحظ.

لكني قلت لك أني مغناطيس للمجانين.

اعقلها أنت.. شخص يعيش وحيداً.. بلا أسرة.. بلا أصدقاء.

إذا اختفى فلن يبحث عنه أحد!

أليس هذا صيداً سهلاً؟

كما يتصيد المرضى النفسيون أطفال الشوارع ليغتصبوهم.

كما يتصيد الطبيب رجلاً فقيراً ليساومه على بيع أعضائه.

كما يتصيد اللص معتوهًا متسولاً ليساعده في عمل غير شرعي دون مقابل.

كما يتصيد آكل لحوم بشر وجبته التالية، التي فضل اللعب معها قليلاً ليتسلى.

هذا ما حدث تمامًا.

كان يمكن له أن يقول.. أتريد المجيء والاستذكار معي.. أو.. تعال لمنزلي سأعد لك الغداء، بدلاً من الطعام المعلب والبيض المقلي الذي تقتات عليهما منذ ولّدت.

عندها يضع المخدر في طعامي أو شرابي.. يقتلني.. يأكلني.. وانتهى الأمر.

لكن لا!!!!!!!!!!

صديقي الصدوق أراد أن يعذبني قليلاً.. يلهو معي.. كثيرًا.. يُعرّفني أنه خطر وقاتل ومجنون ومختل.. إلى أبعد حد.. ثم يتسلى بالنظر إليّ بين يديه كالقط الذي خرج لتوه من الماء وهو لا يعرف السباحة.. مبتل ومرتجف الأوصال.

وهنا أخطأ ظنك واعتقدت أن الركن المظلم الثاني في حياتي هو تحت تلك الطاولة.. كلا.. إنه تلك الغرفة المبطنة كإستوديوهات الإذاعة.

تلك الغرفة حيث تركني وحيداً في الظلام.. مربوط اليدين والعنق ككلاب الصيد.. لمدة قال لي إنها كانت يومًا واحداً فقط.

يوم واحد فقط.. قضيته صارخًا متوسلاً مناديًا عليه.. أرى وجه أمه المشوه في كل ركن ينقض عليّ، فأنتفض محاولاً الهرب.. عندها تفاجئني السلسلة بجذبي إلى الأرض مرة أخرى قبل حتى أن أحاول الطيران.

يوم سمعت فيه صوت أبي وصوت صرخة أختي مرارًا وتكرارًا.

يوم انفجرت فيه مثانتي في الظلام، ليأتيني صوت أمي تناديني لائمة إياي على فعلتي هذه.. فإذا بي أعود طفلاً أتوسل إليها أن تستيقظ والدموع تبلل صدري المضطرب!

يوم استمتعت فيه بنظرات والدته الخاوية تحذرني من الاقتراب من غرفتها.

أوضع أزرارًا بدلاً من كرتيّ العين؟

أم تراه استخدم عدسات لاصقة؟

دائمًا ترسم عيوننا ويحفظ عقلنا صورة غير الحقيقة.. لأن خيالنا يلعب دور المحرر، فيضيف

ويحذف ويعدل ويكمل الصورة، لتصبح آبشع كابوس يستطيع خيالك نسجه.

لذلك كان منظرها الذي يساوم عينيّ في كل ركن من أركان الغرفة ينفر الدم من عروقي، كأن الشيطان يبول على كتفيّ.

رغم أني لم أنظر لوجهها إلا للحظة، ولا أذكر أني دققت في ملامح ما تبقى منه حتى.

وكلما حاولت تمالك أعصابي.. ازدادت الخيالات سوءاً.

ووسط كل ذلك انفتح الباب.. وانغلق وأنا أشك في سلامة سمعي.

لكن صوته أتى من الظلام.. أبدأت تهلوس من الآن؟!

التصقت إلى ركن الحجرة محاولاً الاحتماء به.

إنه يقترب، أشعر بأنفاسه تملأ الغرفة.. ثم تلفح وجهي.

إنه يهمس في أذني آمراً إياي أن أهدأ!!

لكن وجه أمه يطالعني في ظلام لم أعرف كيف بقيت فيه دون أن تعتاده عيناي.

فجأة أضاء المصباح فأصاب عينيّ الصمم حتى اعتادتا ضوضاء أشعته.

وخلال تلك اللحظات جلس في الركن المجاور نفس جلسته المعتادة.. مبتسمًا ابتسامته الجانبية.. قائلاً بكل هدوء:

– قلت لك اهدأ.

بدأ الكره يغلي في عروقي.. كأن الخنجر تحرك من ضلوعي إلى حنجرتي.

أهي دموع تجاهد كي لا تنساب؟

أهو الخوف ينفض خلاياي كما تنفض حبات العرق عن سطح الطبلة عندما تُطرق؟

أهو كل تجسيد للشيطان يتمثل أمامي من خلال عينيه؟

أم ترى بوذا كان على حق.. والموتى يولدون في أجساد جديدة.. فولد سفاحو العالم مرة أخرى، لكن هذه المرة في جسد شاب نحيل أناديه.. يا صاح!!

ترى في أي جسد سيولد أبي بعد موته؟

أسأجد طفلاً صغيرًا يجلس جواري في الحافلة يومًا ويقترب مني هامسًا:

ألم أقل لك؟.. حظًا سعيدًا في المرة القادمة بني!!

ثم أجد سكينه الرقراقة تصيب هدفها هذه المرة؟!

*****

كل مخاوفي تعيش معي في هذه الغرفة الآن.. كل ذكرياتي وكل آلامي.. ومع ذلك لست خائفًا.. أسرد لك الحكاية وأنسج خيوطها على الحائط كالعنكبوت.. وأعلم أني سأسقط فيها كالذبابة بعد أن أنتهي منها.

لماذا أسقط دائمًا فريسة؟

– أتعلم أني كنت أنتظر هذا اليوم منذ فترة طويلة؟

نعم كان ينتظر اليوم الذي يراني فيه فريسته الصغيرة.. كالفراشة التي قُدت أجنحتها فصار الطيران حلمًا مستحيل المنال.

– كان رد فعلك ظريفًا حين رأيت وجه أمي.. كنت أقف أمامك لكنك لم تنتبه إلى وجودي من حالة الصدمة التي كنت فيها.

ظريف نعم.. كنتُ ظريفًا.. فأر ظريف لا يتقن في حياته إلا شم رائحة الجبنة والسير خلفها بلا وعي،

حتى يّغلق عليه باب المصيدة!

عندها ينظر إليه صاحب البيت في تشفٍ، ويتسلى باللعب معه قليلاً، قبل أن يقدمه وجبة لقطط الحي.

– لا تنظر إليّ بحقد، فلا أنصحك بإغضابي.

لكني صرخت في وجهه.. لماذا تفعل هذا؟

وللحظة شعرت بمدى سخافة السؤال.

حتى هو ضحك منه!

ثم نظر إليّ مؤنبًا..

– ربما كان السؤال الأنسب هو.. هل ستتركني أعيش بعد أن اكتشفتُ سرك؟.. هل ستعذبني كثيرًا؟ أم سيكون موتي رحيمًا؟!

شعرت بعضلات وجهي تتقلص وعينيّ تشهقان.

ثم إنه أخرج مقصًا من جيب سرواله.. فزدت من التصاقي إلى الجدار وتكورت على نفسي.

– لا تخف.. لن أقتلك الآن.

حقًا.. أتعتقد أن هذا أسوأ ما أخافه؟!

ثم نهض وطلب إليّ آن آستلقي على الأرض.

فراشة بلا جناحان تطيع الأوامر.. فأر ظريف.

تمددت، فإذا به يقف فوقي وينحني عليّ بالمقص في يده.

إنه إحساس قطعة الثلج عندما تمر على جلدك المرتعد.. جلدك الذي انتفضت كل خلاياه لتشكل سطح حجر غير مصقول.. سطح جلد الدجاجة الميتة.

أسيأخذ إحدى أذنيّ أولاً؟

هل سيقص شعري كما يعذبون السجناء؟

ليس شعري بذلك الطول.

هل سيشوه وجهي ويثقب عينيّ؟

كل الاحتمالات ممكنة.

لذلك أغلقت عينيّ في استسلام.. إني فريسة تريد أن تموت بسرعة.

تخيل أنك تعيش في عالم تُعامل فيه كمجرم.. وكضحية.
تُعامل معاملة السجناء.

عند عودتي للمدرسة الابتدائية كان الخبر قد انتشر بين زملائي.

وكان الجميع ينظر لي نظرة تدمج بين التطفل والإشفاق.

تخيل أنك تعيش في كوكب لا تثق فيه بأحد.. الأصدقاء قتلة.. والآباء قتلة!!

كنت أريد أن أجد شخصًا يحمل قلب أمي.

لكني وجدت نسخًا أخرى من أبي!

وجهه ونظرته في كل الوجوه حولي.. اقتلني الآن يا صديقي.. ربما ظلمتك، وأنت لا تريد إلا أن تخلصني من عذابي.

إن الحياة صعبة على الغرباء مثلي.. اقتلني بسرعة وكن مسدسًا رحيمًا كاتمًا للصوت.

شعرت بطرف المقص البارد يلامس جذعي ويمر عليه بهدوء.. صوت ملابسي تتمزق.. و بيده تزيحها بعيداً.

يحرك مقصه ببطء.. كأنه يستمتع بتقلصات ملامحي المتحفزة، ويريد أن يطيل بقاءها لأبعد حد ممكن.

بعد فترة من الوقت..أصبح جسدي مكشوفًا بالكامل له ليشوهه كما يريد.

عارٍ كالدجاجة الميتة.

وطرف المقص يتجول على جلدي.. ترى أين سيستقر؟

الوقت يمر ببطء، وكأن أحدهم ضغط زر الحركة البطيئة في شريط حياتي.

ترى أين سيستقر المقص؟

على جرحي القديم استقر.. حيث لا تزال العلامة ظاهرة تحكي قصة عذابها.

– هذا أثر سكين والدك، أليس كذلك؟

ربما كان من الحماقة إخبار أعز صديق لك بماضيك.. لكن مشاركة المعاناة تخفف وطأها.

فتحت عينيّ ونظرت إليه.

كان جالسًا فوقي تمامًا.. نصل مقصه على ندبتي.. ووجهه خالٍ من التعابير.

أومأت رأسي أن نعم.. هذا هو الأثر الشهير.. فابستم.

خلع قميصه وألقاه إلى جوار ملابسي المقطعة.

– انظر إلى أثر والدي.

وعاد الفضول الذي قتل الكائنات ليقتلني.

هو لم يحكِ عن أبيه أو أمه يومًا.

لكني استنتجت أن والده مات كباقي الآباء الطبيعيين، الذين تنهش فيروسات الكبد وأدويتها بطونهم، حتى ينتهي رصيدهم من الطاقة اللازمة لمواصلة الحياة.

لكن بعد جملته الأخيرة كان قلبي يبتسم.. ربما كان أبوه أسوأ من أبي!

إنه سُمّ التشفي والأحلام الكاذبة.. سُمّ مثل قديم قالوه لنا في الصغر.. من رأى ألم غيره هان عليه ألمه.

لكن ترى أي أثر تركه فيه والده؟

دوائر صغيرة قاتمة اللون تملأ جذعه.

أكان والده يستخدمه كمطفأة سجائر!

رائع، كم هو سادي.

عدد من الخطوط المتقاطعة، كأن ذئبًا نهش جسده من كل الاتجاهات.

سادي وحيواني.

أستطيع تخيل والده يحبسه في هذه الغرفة في صغره لأنه كسر فنجان القهوة بالكرة.. ثم ينهال عليه بالسياط لتمزق جلده، ثم يطفئ سيجارته بعرق ابنه الصغير.

لكن هل هذا ما حدث؟

كان خيالي يعمل، بينما هو جاثم فوقي ينظر إلى عينيّ بابتسامة يستشف بها ما يدور بعقلي كاملاً أمامه.. كأنه قارئ أفكار متمرس.

– لا تحتاج تفاصيل؟

أغلقت عينيّ وهززت رأسي أن لا.

– مات في صغري.. لم أفرح كثيرًا بذلك، فقد حلمت أن أكبر وأنتقم منه بنفسي.

كم تمنيت أنا أيضًا أن أذهب لزيارة أبي.. ربما لأقتله.. أو أكتفي بنظرة كراهية، تتبعها سبّة تحذفها الرقابة.. ربما قد أنهار بعدها وأسأله من بين دموعي.. "لماذا؟!".. لماذا فعلت ما فعلته، أبي؟!

لكنه نفس السؤال الغبي الذي سألته لصديقي منذ قليل!!

لكم حلمت أن أتسلل إلى المشفى.. أفتح باب غرفة أبي.. أبتسم بكراهية.. ثم أقترب من فراشه في هدوء.. وأخرج سكينة من جيبي.. ثم أرفعها إلى أعلى.

ودائمًا.. أستيقظ عند هذه اللحظة منتفضًا.

كان هذا أسوء كوابيسي.. لم أرد أن أكون قاتلاً.. كارهًا، أو حتى ممن يحملون الضغينة.

قضيت حياتي أحاول ألا أتشبه بأبي في أي صفة.

– أمي كانت تتفرج عليه وتبتسم.. كانا زوجين مثاليين.

يالها من سيدة رائعة هادئة.

– لكن الأمر لم يأخذ مني وقتًا طويلاً حتى اكتشفت أنها ليست أمي.. بل أختها التي كانت تمقتها.. تزوجت أبي بعد موت أمي، بحجة أنها تريد أن ترعاني.. بينما هي تزيد من كراهيتي في قلبه.. كان يراني السبب في موت أمي.. الملاك الذي أحبه، على حد قوله.. لكنه لم ينظر إليّ ولو مرة على أني

ابن ذلك الملاك.. بل كان يتلذذ بتعذيب الشيطان الذي قتل حبيبته.

وهنا يراودني خاطر في الحاضر، في غرفتي هذه.

أنت تنظر إليّ كما كان والده ينظر إليه، أليس كذلك؟

أقدم لك اعتذارًا آخر.

– بعدما عرفت الحقيقة قسمت غرفتي.. وبدأت أبني هذه التحفة الفنية.

فنان حقيقي.. شخصية مثالية.

– قمت بحبسها هنا في الظلام أيامًا.. ثم عذبتها أيامًا أخرى.. كانت تتوسل إليّ لأقتلها.. لكني كنت مستمتعًا إلى أبعد حد.. تلك النشوة الرائعة عندما تمر السكين على جلدها، فتتسلل إليه وتشكل ثناياه.. وحينها ينسال الدم.. أحمر براق.. لذيذ بطعمه الصدئ.. منعش بصوت صرخاتها العالية التي لا يسمعها غيري.

وهنا يعمل خيالي، وأنا أنظر إلى ملامحه وهو يتلذذ بوصف أفعاله.. أراه يقتطع جلدها، ثم يغمس أصابعه في الدم ويأخذه إلى فمه.. ثم يغلق عينيه متأوهًا من النشوة.

بينما يقشعر جلدي وينتفض كتفاي في اشمئزاز.. عندها يضحك هو وينحني على أذني هامسًا:

– أتعرف مذاق لحم البشر؟ إنه رائع!

وهنا تعود عيناي لشهقتهما الواسعة، بينما تتلوى معدتي.. وأستدير مفرغًا محتوياتها على الأرض.. بينما يميل هو ليحضر ملابسي الممزقة ويمسح بها فعلتي الشنيعة، بوجه لم تهتز ابتسامته الظافرة لحظة واحدة.. كان يمرر ملابسي على الأرض ماسحًا ما كان منذ لحظة في معدتي، وهو يكمل حديثه الهادئ:

– بعدها أحضرت دمية أزياء.. وغلفتها بالجلد الباقي من العزيزة الغالية.. هكذا لم ينتبه أحد لغيابها.. فقد أخبرت الجميع أنها أصيبت بالشلل.. ولكن لم يمر يوم عليّ دون أن أحلم بمذاق دم شخص ما.. برائحة لحمه وجلده وهو يحترق في المقلاة.. بصرخاته وهو يتوسل لي.. إنها النشوة العظمى يا صديقي.

لم يبقَ في معدتي ما يصلح للانزلاق خارجها، فأغلقت عينيّ ومخيلتي، وحاولت ألا أسمع صرخات الذين نالوا شرف الدخول قبلي إلى هذه الغرفة.

لكنه أخرج من جيب سرواله الخلفي صورهم.. وأجبرني على أن أنظر إليهم.

رائع.. حتى تكتمل الصورة في مخيلتي الواسعة.

مكبلون عراة مثلي، يكسوا وجوههم الهلع.

بعضهم ينزف، والبعض الآخر سليم الجسد مرهق الروح.

بعضهم في أوضاع مخلة، وبعضهم في أوضاع تدل على أن روحه تسللت هاربة.

تسلل سؤال لذهني.. أين كل تلك المعدات الخارقة التي تكتظ بها الصور؟ عندها لاحظت أن الحائط المقابل يحمل فتحة مرتفعة يبدو أنها كانت نافذة؛ فتحولت إلى مخبأ لأدواته العزيزة.

لكن خيالي القذر لم يتوقف عن الإلحاح لأتخيل نفسي مكان كل واحد من هؤلاء.. وهذا تمامًا ما كان يهدف إليه صديقي عندما دفعني لمشاهدة هذه الصور.

أي خبرة في التعذيب تدور في فلك عقله، تجعله يعرف ما يخشاه الآخرون؟!

ربما هو لم يكره والده كما فعلت أنا.. بل إنه قدسه.. اعتبره نموذجًا وجب عليه التفوق على إمكانياته.

ولآعتقد آنه تفوق على إمكانيات كل آكله لحوم البشر، في كل أفلام الرعب.

لماذا يخشى الناس من أكلة لحوم البشر؟

ربما لأنهم يقتلون الحيوانات.. ويسلخونها.. ويمزقون اللحوم عن عظامها.. ثم يغسلونها ويسلقونها ويأكلونها.. ويستمتعون.

يستغلون كل عضو من أعضائها في طبق مميز خاص.

ويصنعون الأحذية والمقاعد والحقائب والمعاطف من جلودها وصوفها وفروها.

ويحفرون في عظامها حليًا وتحفًا تزين أجسادهم وجدرانهم.

إنهم لا يبقون على ذرة في أجسادها دون استغلال.

والأسوأ أنهم يشهدون العملية كاملة أمامهم.

فعندما يسمعون الكلمة المحرمة، يتخيلون العملية كاملة تمر كشريط فيلم سينمائي قديم، لكن الفارق هنا أن البطل في ذلك الفيلم ليس الحيوان المسكين.. بل هو الإنسان نفسه.

تراهم يسلخون جلدك.. يمزقون أعضاءك وينتهكون حرمة جسدك.. لكن ماذا يضر الشاة بعد موتها؟

لتقتلني يا صديقي، دون أن تعذبني وتهين حرمة جسدي في حضوري.. انتظر أن تتسلل روحي هاربة من جحيمك، ثم افعل ما تشاء.

– ألست فنانًا؟

وعندها بدأت أكتشف أن عقلي كان قد ترك جسدي وغادر إلى متعته الخيالية الاستكشافية الخاصة.. تاركًا خلايا جلدي الحسية ترسل إشاراتها دون مستقبل.

وعندما أفاق عقلي من شروده.. كان المقص قد عاد يتجول على جسدي دون أن أنتبه.

*****

بقيت في المشفى يتردد على فراشي أطباء نفسيون.. وجراحون.. وممرضات.. وزملاء في الجامعة يبكون ويضعون الزهور ثم ينصرفون.

علام يبكون؟ هم لم يتحدثوا معي من قبل مطلقًا!!

ربما يتخيلون آنفسهم مكاني في الفراش.. فقد كانوا أصدقاء معذبي أيضًا.

بالإضافة إلى أنني لم أتمكن من التماثل للشفاء قبل اختبارات نهاية العام.. كنت أعاني من جروح سطحية وأخرى عميقة.. حروق مختلفة متفرقة.. آثار كدمات.. آثار انتهاك جنسي ونفسي وعصبي وروحي، وقضية في المحكمة تحمل عنوان "قاتل.. دفاع عن النفس".

لم أستطع أن أسمح لنفسي أن أمثل دور البطولة بدلاً عن الأبقار داخل معدة صديقي.

كان يقول إنني "أفضل وجبة سيتناولها في حياته"!

وهو لم يكن ليستغني عن شهوة الانتظار.. تعلم أن كنزك أمامك، وتتخيل المتع التي سيدرها عليك عندما تبدأ في إنفاقه.. لكنك تؤجل إنفاقه حتى تستمتع برائحة القطع الذهبية، وملمس حبات اللؤلؤ ولمعان الياقوت.. إنها متعة كبيرة.. ربما تفوق متعة إنفاق النقود على متعتك الكبرى، التي كنت تحلم أن تجد الكنز لتحققها.

وهذه كانت نظرية صديقي.. كان يستمتع بنظرات الهلع والصراخ.. يستمتع بمذاق الدماء الصدئة

ورائحتي العفنة، التي تتلاحم فيها رائحة العرق والبول والدماء.

كان يستمتع بجعلي أتعذب وأبكي وأتوسل.

لم يكن يريد قتلي الآن.. كان يريد الانتظار عدة أيام أخرى.. ثم بضعة سويعات أخرى.. كم كانت تحزنه فكرة ترك هذه المتع الكبيرة لأجل متعته الكبرى.

لم أرد أن أقتله.. فقط كنت أريد أن أهرب.. أتصل بالشرطة.. تأتي الشرطة.. يتم إيداعه غرفة مقابلة لغرفة أبي.. وأنتظر في كل مناسبة بطاقتيّ "حظًا سعيداً".

لكن القفل لم يصب رأسه عندما قذفته به.. عندها انتبه إلى جرأتي الزائدة ونكراني لجميل صنعه.. ونهض ليحضر أداة تعذيب جديدة.

عندها لم أشعر إلا بالسلسلة التي تكبل عنقي تلتف حول رقبته، وبيديّ تسحبان طرفيها بأقصى ما أوتيت من قوة.

أردت التوقف لكني كنت قد فقدت التحكم في جسدي الذي أنتهك لحد لم يعد ليسامح ويغفر بعده.. لم يتوقف ذلك الجسد عند انتفاضات جسده.. ولا شهقاته وهو يحاول التقاط الهواء وسحبه إلى صدره.. لم يتوقف عند يديه الداميتين

وهما تحاولان التعلق بحبال النجاة الخيالية.. لم يتوقف عند صوت طقطقة عظام رقبته.. ولم يتوقف عندما تساقط جسده بعدها وتراخت مفاصله.

لم يتوقف حتى شبع من استنشاق روحه.. عندما انتهك حرمة القتل.. عندما تأكد أن رسالته قد وصلت واضحة لمعذبه.. بأن هذا هو الانتقام.. لا شفقة.. لا رحمة.

حتى إنني لم أكلف نفسي عناء النظر إلى جثته.

وهنا أضيف كابوس آخر إلى كوابيسي.. صوت عظامه تتحطم تحت ضغط يدي بالسلسلة.. إنك قاتل.. أنت كأبيك، عزيزي.. لا فارق بيني وبينك.. ثم ضحكة شريرة كضحكة دراكولا.. وعيون والدته، أو من كنت أظنها ويظنها والدته.. وهي تطالعني بفرحة.. ثم وجه أبي يبتسم حاملاً ورقة لعب.. الولد كأبيه.. أنا فخور بك.

قال لي الطبيب النفسي مرارًا.. لست كأبيك.. أنت قتلت دفاعًا عن النفس.. كنت تتعذب، وكان هناك خطر كبير على حياتك.

لكن ربما كان أبي يتعذب نفسيًا أيضًا.. ربما رأى أن وجودنا خطر كبير على حياته.. نحن الكائنات القذرة التي تعذبه.

لا أحاول خلق أعذار له.. لكني أريد حقًا أن أفهم ما كان يدور بذهنه.

وفي تلك الأيام عندما كنت أنظر للمرآة كنت لا أرى انعكاسي المبتسم.

بل أرى وجهي الهلع، وصديقي يقف وراء ظهري واضعًا يده على كتفي.. ويمرر بيده الأخرى المقص على حنجرتي، بينما أنظر أنا إلى انعكاسي هلعًا برقبة متشنجة.

وعندها أحاول الهرب من خلال المرآة، فأعبر إلى الفضاء القابع خلفها، وألتفت لأرى إن كان قد عبر هو الآخر.

فأجده يركض مسرعًا خلفي.. مستغربًا من عبوري وعبوره.. هو لم يأتِ هنا من قبل كما فعلت أنا مرارًا، فلا أستغرب دهشته هذه.

وعندها يلقي بمقصه وينظر إليّ معاتبًا.. فأجدني أقبض على الدخان من حولي.. وأوجهه ليلتف حول عنقه.. وهو يصرخ.. وأحاول أنا التوقف.. لكن الدخان يشلّ يدي عن الحركة.. وألتفت خلفي لأرى وجهًا يبتسم إليّ من خلال الدخان.. ثم تنساب الدماء الفِلّينية الطباع مرة أخرى من جرحي القديم.

ثم أضطر لإعادة السنة الدراسية وأنا أحمل كوابيس، تتبدل صورتها أحيانًا لكنها تحمل نفس المعنى.. كأنها تعيد عليّ نفس الجملة في كل ليلة لأتقن الدرس.

لكن القدر يتقن لعبته أيضًا!

الدفعة الجديدة التي أصبحت من طلابها الآن كانت لا تعلم شيئًا عما حدث معي.. لكن كل الأساتذة والموظفين كانوا يعلمون.

كان النجاح سهلاً لأنهم يقدرون ظروفك.. والطلبة يعاملونك بطريقة عادية.. وتحاول أنت أن تُطبق كلام الطبيب.

اندمج مع الناس.. عش حياتك وقدّر أنك لا تزال حيًا.

إذا كنت تفتقد أسرتك فاعمل على تكوين أسرة جديدة تبادلها الحب والحنان.

أنجب أبناء تعطيهم ما فشل والدك في إعطائه لك.

أعطيهم سكينًا في أحشائهم؟!

حينها ينظر لي الطبيب مبهوتًا.

ملخص العلاج.. أن الطبيب فقد الأمل في تغيير أفكاري السوداوية.. وأنا أصبحت أضحك وأتعامل مع كل شيء كالمراهق الذي يتفنن في صنع النكات عن المصائب التي تتلون حوله.

وعندها بحس فكاهتي الجديد قابلتها.

كانت هناك تجلس على كرسي في المكتبة تطالع كتابًا لا أذكر عنوانه.. لكني كنت كالعادة أطالع كتبًا تتحدث عن العالم السعيد.. عن المثالية.. عن الأحلام التي من الممكن أن تتحقق في يوم من الأيام إذا آمنت بها.

لم أكن أذهب للمنزل إلا للنوم، فقد صرت أخاف الوجود في مكان مغلق بمفردي.

لذلك كنت أقصد المكتبة دائمًا بعد انتهاء اليوم الدراسي.. لأقضي بها وقت الفراغ الذي يسبق مواعيد عملي.. وأقرأ.

لكن عينيّ لم تستقرا على الصفحة أمامي كثيرًا في ذلك اليوم.. فقد تعلقتا بها.

*****

– أفضل صديق على الإطلاق.. لا ينسى موعدًا.. لا يهمل درسًا.. لا يتوقف عن

كانت تعلم حاجتي للإيجابية في حياتي؛ فأرسلته لي.

هذه مقتطفات من مذكراتها، عزيزي.. اسمع..

– اليوم قال لي إنه يحبني.. فتقافز قلبي وعدت مراهقة في الرابعة عشرة من العمر.. كم هو إحساس رائع أن تحب شخصًا ويبادلك هو نفس الإحساس.

كانت سعيدة يومها للغاية..

– العرس يقترب وقلقي يزداد.. ليس كقلقي يوم جاء إلى منزلنا لطلب يدي.. كنت أخشى أن يرفضه والدي لأنه بلا عائلة.. لكنهم وجدوه شابًا مثاليًا.. مجتهدًا.. يعمل ليلاً ونهارًا.. وقادر على أن يحافظ على أسرته.. عندها رقص قلبي للمرة الثانية.

– اليوم المنتظر.. أخبرته بالحقيقة بالأمس، فابتسم وقال ألا أقلق.. هو مرّ في حياته بأشياء كثيرة تجلعه لا يقف عند التفاصيل الصغيرة!! منذ متى والأرض تنجب ملائكة مثله؟ بكيت كثيرًا.. لكم كنت أتمنى ألا أضطر إلى الوقوف أمامه وقول تلك الكلمات.. ألا أحمل في قلبي إلا قلق كل عروس بأن ثوبها لن يكون جاهزًا، وبأن أقاربها لن يعجبهم طعام العرس.

ولكن لحسن الحظ أعجبهم الطعام.. ولن أقول إننا كنا في قمة السعادة في اليوم التالي.. فقد كانت كل أيامنا التالية مليئة بالسعادة.. ابتسامتها في وجهي كل صباح.. تختلط عليّ لحظة أهذا وجه أختي أم وجه ملاكي وزوجتي.

رائحة القهوة التي تُعدّها، ورائحة عنقها عندما تعانقني وهي تناولني الفنجان؛ يختلطان معًا في مزيج يجعل الإفاقة من سكرات النوم دونهما حلم بعيد المنال.

في المساء أعود من عملي.. وتكون هي قد عادت قبلي بمدة.. أعدت المائدة وجلست على الأريكة تلتهم كتابًا ضخم الغلاف.. وعندما تلتفت إليّ تتألق عيناها مع انعكاسة ضوء المصباح الصغير على وجهها.

وجهها حيث وُلدت وحيث أموت كل ليلة، موتة عاشق نائم كالطفل في رحم أمه.. أتوسد قلبها وأحتمي برائحة شعرها من كل كابوس حلمت به يومًا.

عيناها حيث وضع النحل سر خلقه.

ملامح فتاة عادية، لكنها الأكثر جمالاً في عينيّ.

لا أستطيع أن أصفها إلا كما يصف "ليوناردو كوهين".. سوزان:

تريد أن تسافر معها مغمض العينين.. وتغرق في حكمتها كحجر يسقط في بحيرة.

لم تكن الحياة مثالية بالطبع.. فبين وجهها وبين وجه مديري الأحمق كنت أمر بالشوارع المزدحمة.. وبالأطفال مقطعي الملابس مسمري البشرة؛ من قلة الاستحمام وتفاعله مع أشعة الشمس.. بالأشخاص الذين لا يطيق أحدهم صوت كائن غيره على الأرض.. فيرفع صوته ويديه على الجميع.. بالغلاء ونقص المال أحيانًا.. لكننا ولحسن الحظ لم نكن فريسة للجوع.

يضحكني منظر من لا يضع حزام الأمان حتى يخبره أحدهم أن هناك رجل مرور يقف أمامه.. فتجده يسحب الحزام بسرعة قبل أن يشاهده الضابط فيحرر المخالفة.. بينما يئن الحزام الذي لم يتحرك من مكانه منذ صُنعت السيارة!

وأتساءل حينها.. هل يجب أن يُذكّره الجميع بأن ربه يشاهده كي يترك ما في يده من ذنوب بسرعة، ويضع حزام الأمان قبل أن يسجلها الملاك على كتفه؟

تضحكني آشياء كثيرة لا أفهمها.. ربما لأني لا أفهم الجميع!

الجميع دائمًا يرفعون شعارات الانتماء للوطن.. وأنا دائمًا أتساءل عن أي وطن يتحدثون؟

أصوات الأغاني الوطنية تهدر في كل مكان.. لماذا تسرب تلك الأغاني الأدرينالين في عروق الناس؟

فأنا لم أشعر قط بما تعنيه كلمة وطن، حتى قابلتها.

فاعتبرت كل أغاني الحب أغانٍ وطنية.

– أعراض الحمل.. أعرفها جيداً ولم أخطئها.. ذهبت اليوم إلى الطبيب مع زوجي العزيز.. قال الطبيب إننا ننتظر مولوداً.. تمنيت أن يرى الكون كله تلك النظرة السعيدة على وجه زوجي.. كأنه يطير في السماء بلا أجنحة.. حملني من على الأرض أمام الطبيب.. كان سعيداً للغاية وكنت أنا متجهمة الوجة.. أتمنى ألا يكون قد لاحظ ذلك.. ربما لاحظه واعتقد أنه نتيجة التعب.. أعلم أنه كان يحلم بهذه اللحظة منذ وقت طويل.. لكن لا أعتقد أني مستعدة.

وهنا تخطئ هي.. لم أكن أنتظر تلك اللحظة، أو هكذا أقنعت نفسي.. كنت أخشاها كثيراً.. أخشى

أن أكون أبًا قاسيًا.. أو حنونًا أكثر من اللازم.. يمكنك أن تخمّن هذا بسهولة من معرفة تاريخ حياتي الأسود.. لكن بمجرد أن عرفتُ أن هناك طفلاً بالفعل.. تغير كل شيء.

– أهي هلاوس الحمل.. أم أني رأيت ذلك الوجه بالفعل؟ أطل عليّ من شاشة الأشعة.. لم أر ما رآه الطبيب.. وكذلك لم يرَ هو ما رأيته أنا.. كان يشير إلى الطفل.. وهذه يداه الصغيرتان.. و... لكن كل ما كنت أراه هو وجه صغير يطل من خلف صفحة من الماء.. صغير كامل.. وليس جنينًا، بل هو طفل وُلد وكبر.. ربما عمره شهر أو شهران.. وفجأة.. فتح عينيه.. لكن الطبيب كان لا يزال يشير إلى يدي الجنين.. وقدميه.. فاستغرب صرخاتي.. أخبرني جنس الطفل لكني لم أنتبه.. وعندما عدت إلى المنزل سألني زوجي عما حدث.. فقلت له إني لم أشأ أن أعرف جنس الطفل.. فقال إنه لم يكن يريد أن يعرفه على كل حال.

– اليوم أخبرته أني لم أعد أريد هذا الحمل.. عندها شهقت والدتي.. وكدت أرى الدموع في عينيه.

– لم يوافق أهلي على قراري.. ولكن زوجي الحبيب قال إنه قراري أنا لأن الطفل ينمو بداخلي.. وإذا لم أكن مستعدة للأمر فمن الممكن تأجيله لوقت لاحق.. لكني لم أرد أن "أكسر بخاطره" كما قالت والدتي.. فهو يحمل صورة الجنين في محفظته..

يضع على باب الثلاجة قائمة بالأسماء التي يحبها.. يشتري كل يوم شيئًا لغرفة الطفل.. كيف تحطمين قلبه وتقتلين الطفل الذي ينتظر قدومه؟ أنت لا تعرفين شيئًا يا أمي.. لا تعرفين أي شيء.. لكن ربما كان جهلك أكثر فائدة لي.

– هل يمكن أن ينتقم مني اللّه فيرسل شبحًا في جسد الطفل؟ أهي هلاوس حمل؟ لا أعلم.. لكن ركلات الطفل تزداد قوة كأنه ينتقم مني.. أتخيل أني أحمل في أحشائي زومبيًا من الغابات المطيرة.. حيث يصنعون دمى الفودو.. ويغرسون الإبر ذات الرؤوس المدببة في أحشائها.

– كنت في الفراش.. عندما شعرت بالركلات تزداد عنفًا.. ثم بدأت أتألم كثيرًا.. كأن أحدهم ينهش أحشائي.. ثم رأيت يدًا تبرز من تحت جلدي.. نهضت إلى المرآة فرأيت وجهه يلتصق بجلدي من الداخل.. فمه ينفتح.. ويداه تدفعان.. ثم اخترق بطني.. صرخت بأقوى صوت لدي.. وعندها استيقظت.

– قضيت اليوم أتشنج وأبكي، وهو يجلس بجانبي يغطي الهلع وجهه.. يحاول أن يهدّئني بكافة الوسائل، لكن هيهات.. قلت إني أريد أن يسقط الجنين.. الآن حالاً.. فجثى على قدميه، الدموع تغطي وجهه، ثم أمسك يدي.. قائلاً إن هذا مستحيل.. لقد تأخر الوقت لفعل ذلك.. هو على حق.. أنا في الشهر السابع الآن.. قد يولد الطفل

ولادة مبكرة في آي يوم.. إنه حي.. شبه كامل داخلي.. لم يعد التراجع ممكنًا.. كل ما فعلته هو أني سممت طمأنينة قلب زوجي، وحمّلته ذنب ما أمُرّ به.. رغم أني أعرف أن الذنب ليس ذنبه.

بعدها بشهر جاءني اتصال أثناء وجودي في عملي.. كان طبيبها.. قال إن الجنين قد مات.

لكن لم يكن لدي وقت للبكاء، فقد جاء الخبر الأسوأ بعده.

كان موعد فحص زوجتي المعتاد.. أظهرت الأشعة أن الجنين قد تُوفي.. عندها طلب إعداد غرفة العمليات فورًا.. لأن استمرار وجوده في رحمها يمثل خطرًا على حياتها.. لكنها أخذت تصرخ وتسب الجميع، ثم غادرت المشفى.

كان عليّ أن أجدها وأعيدها للمشفى لينتزعوا الجثة من أحشائها قبل أن يتأخر الوقت.

أخذت أتصل بها على هاتفها المحمول، فلا ترد.. طلبت أهلها لأخبرهم بالأمر وأطلب مساعدتهم في البحث.. ثم اتصلت بمنزلنا.. ففتحت مكبر الصوت.

– مرحبًا عزيزي.

حبيبتي، لماذا لم تردي على هاتفك؟

– لم أكن في مزاج يسمح بالرد.

هل تبكين؟

– ليس تمامًا.

لماذا تلهثين؟! هل أنتِ بخير؟

– أنا في أفضل صحة.. لكن..

لقد أخبرني الطبيب.

(عندها بدأت تبكي)

– آسفة.. لم أفعل أي شيء، صدقني.. لقد كان هو.. هو من فعل ذلك.

من؟!

(صوت أشياء تتحطم وصوت بكائها يرتفع)

– لقد قتل الطفل.. أنا أرى وجهه في كل مكان.. لقد كرهت حياتي كلها.. إنه في كل مكان.. على الزجاج عندما أنظر من النافذة.. على الستائر.. على ضوء السيارات.. على جدران المنزل.. حتى في الأشعة يطالعني وجهه!!

آرجوك اهدئي قليلاً!! آنا لا آفهم شيئاً.

– إنه خطئي منذ البداية.. أنا آسفة، عزيزي.. لم أكن أعلم.

لا تقلقي.. لماذا أنتِ حزينة؟! لقد حدث ما كنت تريدينه، عزيزتي.. مات الطفل كما تريدين.. عودي الآن للمشفى لكي يخرجوه فنقوم بدفنه.. لا نريد أن يكون هناك أي خطر على حياتك، حبيبتي..

(عند هذه النقطة كنت قد بدأت أجهش في البكاء، وساد صوتي نبرة توسل.. بينما المزيد من الزجاج يتحطم في المنزل)

– لا أريد أن أحيا.. سيطاردني حتى يأخذني معه.. فلنجعل ذلك سريعاً.

(كنت في الطريق إلى المنزل.. أقود السيارة وأنا أحادثها على الهاتف.. كانت سرعتي جنونية حقاً، وكسرت عدداً من إشارات المرور)

أرجوكِ لا تقولي هذا الكلام.. أنتِ الشيء الوحيد الذي يجعلني أطيق هذه الحياة.

– وكذلك أنت.. أنت الوحيد الذي دفعني لأحب الحياة.. أتدري يوم قابلتك.. كنت هشة.. محطمة..

(ثم صمتت قليلاً.. وتغيرت نبرة صوتها وهي تضيف)

– أخبرني لماذا لم تعارض زواجنا عندما أخبرتك أني لست بعذراء؟!

(لحظة ذهول)

كيف يمكن أن أجعل أمرًا كهذا يوقف زواجنا.. أنا أحبك، ولست بنادم عى ذلك.. أعلم أخلاقك وأثق فيك.

– كان ينبغي أن تعارضه (بلهجة صارخة غاضبة).. لا يجب على أمثالي الزواج.. كان يجب أن تقول لا وتحطم قلبي، فلا أوافق على الزواج بعدها أبداً.

أي كلام هذا، عزيزتي؟!

– إني أكرهك.. أنت من أنساني كابوسي وهبط بي إلى الأرض الجميلة.. لكن الكابوس لم ينسني يا ذكي.. إنه يطاردني.. أتعرف كيف فقدت عذريتي؟! بالطبع لا تعرف.. لم أخبرك ولم أخبر أحداً.. لقد كانت أكثر التجارب قبحًا وقذارة.. أغتصبت على درجات السلم كالقطط.. يلفح نفسه الكريه وجهي، وأحاول التشبث بالجدران الرخامية لأدفعه بعيداً؛ فأجد النمل والحشرات يمرون فوق أصابعي.. وجه كائن حيواني قاس.. يكمم فمي بيد خشنة قاسية

كلوح الخشب.. لم تنفع دموعي ولا توسلاتي.. وعندما أفقت كنت لا أزال على السلالم الطويلة.. غارقة في دمائي ودموعي وعرقي.. تغطيني الحشرات. وهناك وقف هو يرمقني ويبتسم.. عندها انتفضت.. كانت كل خلاياي ترتعد في اشمئزاز ومهانة.. ألقى إليّ بثوب، وأمسك وجهي بين يديه بقوة ورفعني من الأرض، هامسًا.. إنه سيقتلني إذا عرف أحد بالأمر.. ارتديت الثوب وهرعت إلى الشارع.. بعدها اكتشفت أنني حامل!

(كنت أنا قد أوقفت السيارة على جانب الطريق، وقد امتلأ وجهي بتعبير لا أفهمه، يطل عليّ انعكاسه على الزجاج.. أكاد أسمع صوت صديقي يضحك في الكرسي الخلفي.. أنتما حقًا مناسبان لبعضكما.. أخبرني لماذا لم تسألها عن تفاصيل فض بكارتها؟ أكنت تخشى أن تسمع ما سمعته الآن؟ هذا صحيح أليس كذلك؟ أيها المسكين!!)

– ذهبت للدراسة في جامعة بعيدة، واستأجرت شقة لي بمفردي.. وهناك تعرفت على طبيبة صغيرة السن.. أخبرتها بظروفي، فوعدتني بأنها ستساعدني في الولادة.. ثم سنقوم بإيداع الطفل أحد الملاجئ، وينتهي الأمر.. تخيل أن تلد الفتاة على فراشها.. بدون أطباء.. بدون تخدير ولا علاجات.. كأنني عدت بالزمن.. وعاء الماء الدافئ.. والأدوات الغريبة.. وتمت الولادة.. لم أرضع الطفل.. ولكن عندما نظرت إلى وجهه رأيت القذر يبتسم في

ملامحه.. عندها قررت آن القذر لا يجب آن يعيش ليكبر ويكون كأبيه.

(ترى هل فكر أبي هكذا عندما قرر قتلنا؟!)

– ربطته بحجر وشاهدته وهو يغوص في المياه دون رجعة.. ولكنه فتح عينيه وصرخ!

(وتغرق في حكمتها كحجر يسقط في بحيرة.. كما يصف ليونارد كوهين.. سوزان)

أخذت تضحك بهستيرية.. ثم ساد الهدوء فقطعتْ الخط.

ربما ماتت.. ربما انتحرت.. ربما وربما وربما.. لكن عقلي كان قد شُلّ في تلك اللحظة.

– أيها المسكين!!

*****

تقرير الشرطة:

اقتحم والدا المجني عليها باب الشقة في تمام الساعة الثامنة مساءً.. بعد أن تلقيا اتصالاً من زوجها في تمام الساعة السابعة يفيد بأن المجني عليها قد غادرت المشفى في حالة سيئة، وأنه يجب إعادتها بأمر من الطبيب.

عندما حققنا مع الطبيب أكد الواقعة.

يبدو أن المجني عليها كانت لا تزال على قيد الحياة، حتى بدأ الطرق على بابها؛ فسارعت بغرس السكين في صدرها، الأمر الذي أدى إلى وفاتها في الحال.

وقت الوفاة هو تمام الثامنة مساءً.

كان المنزل في حالة فوضى شديدة عندما حضرنا.. ما يدل على الحالة السيئة النفسية والعصبية والصحية للمجني عليها.

لم يتمّ العثور على زوج المجني عليها حتى الآن.. ولكن سجل المكالمات يؤكد أنه كان على اتصال مع المجني عليها عبر الهاتف منذ الساعة السابعة والربع.. حتى تمام الثامنة إلا خمس دقائق.

إفادة الطبيب تؤكد أن المجني عليها كانت حاملاً في الشهور الأخيرة، وأن الطفل لم يمت بموتها، بل كان ميتًا قبل الواقعة بيوم أو يومين.

انتهى.

*****

قاتلة!!

بقيت في سيارتي يومين، يتسارع عقلي بينما جسدي لا يقوى على الحراك.. حتى شك في موتي أحد سكان الشارع الذي كنت أقف فيه، فاتصل بالشرطة.

كانت الشرطة أصلاً تبحث عني.. وعندما وجدوني في هذه الحالة؛ فتحوا باب السيارة وأخرجوني منها.. عندها فقط بدأت أشعر بأني ما زلت حيًا!!

لماذا لم يتركوني في ركني المظلم؟

كان عقلي يعمل بسرعة غريبة.. أفكار متداخلة لا أستطيع حتى شرحها لك.. وخيالات مختلفة.. أصوات وطرقات وأسلحة.. ياله من ركن مظلم!!

اعتقدت أني بمرور الوقت سأهدأ.. لكن العكس هو ما كان يحدث.. كنت أغوص في أفكاري أكثر وأكثر.

ربما كان إخراجي من السيارة فكرة جيدة.

أخذوني إلى منزل عائلة زوجتي.. وتركوني.

قابلتني عيون كثيرة لا أعرفها، لكن الجميع كانوا يطالعونني بإحساس يدمج بين الشك والكراهية والإشفاق.

وفي آخر الممر كان والدها ينتظرني ليقتلني.. لكنه حين رأى وجهي اغرورقت عيناه بالدموع.. وألقى نفسه بين يديّ!

ومن لي لألقي بنفسي بين يديه؟!

كنت آخر من تحدث إليها عبر الهاتف.. كان بإمكاني إنقاذها.. لكنني لم أفعل.. هكذا فكر الجميع، ولا يستطيع أحد أن يلومهم.

فهذه هي الحقيقة!!

قال إنهم كفنوها وأنها ستُدفن الآن، والطفلة الجميلة تتوارى في أحشائها.

جلسوا حولي يبتهلون.. وأنا أسمع همهماتهم كأنها تطفوا في الهواء، وتضعنى داخل فقاعة كبيرة تحجبني عن العالم من حولي.. تجعل عالمي ينحصر في جسدها.

لماذا تتحجر الدموع عندما تحتاجها؟

افترضت أن ذلك الجزء هو رأسها، فانحنيت أقبل الجبين البارد.. وأنا أتمنى أن تهبط دموعي لتمنحها الدفء.

لم يكن من الممكن فك الكفن.. أريد أن أرى وجهها وعينيها للمرة الأخيرة فقط.. أرجوكم.

– كلا يا بني.. لا تريد ذلك.. أنت لا تعلم ما يقع أسفل سترها.

أردت أن أثور عليهم.. أن أمزق الأقمشة وأنهشها كالوحش المفترس.

لكن يديّ لم تقويا على ذلك.

هل أخاف من أن أرى مالا تشتهيه عيناي.. أم أني أعلم أنها غادرت هذا الجسد، وأخاف من رؤيته خاويًا؟

أخاف أن أرى النظرة الباردة الخالية من الحياة في عينين لم تتوقفا عن منحي الحنان والابتسام؟

ترى كيف يكون شكل الجنين الميت داخل الجسد الميت؟

لكن..

لماذا لا يريدون أن أرى وجهها؟

هل شوهته بالزجاج المحطم؟

هل طَبّق عليها: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.. فاسود وجهها؟

هل ماتت مبتسمة أم باكية؟

هل ارتسم الرعب على وجهها كما كان يحمله لي صوتها؟

لم أحضر مراسم نومهما بين جدران القبر إلى المالا نهاية.. فقد هرعت إلى الشارع باكيًا، وقد قررت الدموع أن تنفجر من مقلتي.. هرعت بأسرع ما عندي كأني أتمنى أن تصدمني شاحنات الكون.. وينقلب فوقي محتواها، وأوارى التراب إلى الأبد.

لماذا؟! لأني حين لمست أصابع قدمها من فوق الكفن لأقبلها.. كانت قاسية.. متخشبة.

أصبحت قاسية كلوح من الثلج.. باردة.

لقد انسابت الروح من جسدها ورفرفت بعيداً..

غادرت الجسد الذي ربطها بعالمنا لتستقر في عالم آخر لا يدري عنه أحد شيئًا.

عالم اجتهد خيال الشعراء والكتّاب والفنانين جميعًا لنسج خطوطه الأساسية دون جدوى.

يقولون إن الجميع يتساءلون.. ترى هل فلان في الجنة؟

لكن ذلك لم يطرأ على ذهني لحظة.. بل كنت أراها في الحلم تهرب من خيال الطفل، الذي يطاردها الآن مطاردة مادية في البُعد الذي يشغلانه سويًا.. وأرى ابنتي الصغيرة تدافع عنها باستماتة.

لقد انتُهك عرض طفولتي على سنّلم الزمان.

تشوهت صورة الأم في نظري إلى الأبد.

الأم التي قال عنها "محمود درويش":

(عساي أصير إلهًا.. إذا ما لمست قرارة قلبك!)

ترى هل كانت ستقتنع إذا توسلت لها لتبقى حية؟! أم أني قررت مثلها أن موتها هو أفضل الحلول؟

لكن عقلي لم يكن يتساءل حينها، بل كان يدفعني للهرب.

كنت أطارد خيط دخان.. كما يقول نزار قباني.

أو ربما كان الخيط الدخاني هو الذي يطاردني.. لا أعلم.

ظللت آهرول في الشوارع حتى حل المساء.

لم أهتم لغروب الشمس.. ولا لخلو الشوارع من المارة.

لم أهتم بتوالي أعمدة الإنارة.

لم أكترث بنظرات الناس للدموع التي تملأ وجهي.

لم أعد أقتنع بأن الرجال لا يبكون.

كثيراً ما كنت أتخيل العقل البشري كالممرات.. كالشوارع.. تركض فيها هاربًا لكن أفكارك لا تتركك.

لذلك استسلمت لآلام جسدي، وانهرت جالسًا على الرصيف.

تطالعني نظرات المارة مرة أخرى.. لماذا لا يكترث كل منهم بشأنه الخاص؟

أضع وجهي أمانة بين يديّ، حتى لا تمسح الدموع ملامحه.

ولكن الدموع تجمدت مرة أخرى.

أين تركت سيارتي؟! لقد كان الجلوس فيها مريحًا.

رائحة أعلمها تسللت إلى عقلي بهدوء.

تبغ وأشياء أخرى حرمتها على نفسي لأن العقل زينة.

لكني يومها توسلت للكون أن يُذهب عقلي بلا رجعة.

أن أفقد الذاكرة أو أجن.

ربما كانت تلك السيجارة والحبوب التي ناولوها لي حلاً مؤقتًا!!

ركن مظلم مؤقت كغيره، أستتر خلفه من ضوء كشافات الطائرات الهليكوبترية، التي تنبش عني طول العمر في كل مكان.

هكذا بدأت هلاوسي.

كنت في السيارة.. لكني لم أكن فيها.

أزلت المفتاح بعيداً كي لا أقودها دون أن أشعر.

أرجعت الكرسي للخلف شاعراً بكمية كبيرة من اللامبالاة.

لكن الهلاوس كانت قد بدأت.

طائرات هليكوبتر تسلط ضوءها على نوافذ سيارتي.. تحرق عينيّ.

أدرت ظهري لها، لكن ضوءها ظل يخترق جفوني.

حينها قررت الخروج من السيارة.. تركت ركني المظلم كالعادة لأصطدم بجدار الضوء.. ترى هل سأتلقى ضربة على رأسي؟

رأيت نفسي هذه المرة داخل عقلي.

باب السيارة هو باب عقلي؟

لا أعتقد أن عقلي بهذه السطحية.

لكن من يتحدث عن السطحية؟!

متاهة متداخلة الأركان، أكاد أراها من الكاميرا المسلطة عليّ، التي تظهر موقعي في المتاهة الآن.

أهي كاميرا إحدى الطائرات؟

كيف أرى بعينيّ الكاميرا إذن؟

تقترب الكاميرا نحو وجهي.. ثم تعود إليّ الرؤية.

على باب متاهة عقلي استقبلني صوت آقدام يتقدم نحوي من الخلف.

التفت لأكتشف أنه أبي.

ابتسم ورفع سكينه اللامعة، ثم أطلق ضحكة عالية!!

– ها قد التقينا مرة أخرى، بني.

أحاول فتح عينيّ لأتأكد أنني لا أهلوس.

أهو أبي حقًا؟؟

كلانا في الشارع الآن.. إذن هذه ليست هلوسة.

ياله من يوم سعيد.

ركضت بأسرع ما لدي.

لا أعلم أهذه شوارع عقلي.. أم شوارع حقيقية تمر أمام عينيّ في سرعة خاطفة.

وأعمدة الإنارة تتتالى على سكين والدي اللامعة، التي تتراقص خلفي.

لم يكن يحتاج أن يركض ليلحق بي.

لقد كنت واهن القوى.. آهلوس!

أتراني أهلوس الآن؟!

لا يهم.. لنعد لأبي.

مشهد رائع.

أركض ويطالعني وجه صديقي، الذي يقف على كل النوافذ والأبواب.. في كل الشوارع الجانبية.. يضحك بمجون وسعادة بالغة ويصفق.

تتوالى العمائر ويتوالى وجهه.

أي حظ هذا!!

وعندها ظهرت هي.

عند مدخل منزلنا.

نعم في هذا البناء تقع شقتي.. وعلى الباب وقفت زوجتي تشير إليّ لأسرع.

روح تحرسني بعد موتها.

لكن مهلاً، هل تركت ابنتي وحدها مع الطفل الشرير وهربت؟!

لا وقت لتساؤلاتك آيها الآحمق.

لماذا تناولت المُسكرات اليوم؟

لسوء حظك.. أم تمنيت أن اشتعالة السيجارة ووميضها، وأنت تسحب منها أنفاسًا متتالية، سيحرق روحك؟

هل تمنيت أن تذوب مع خيط الدخان المتراقص الذي يتصاعد منها؟

هل تمنيت أن يُزيل دخانها الدخان الذي كان يطاردك؟

ليتراقصا معًا رقصة الموت السرمدي على موسيقي التانجو.

صعدت السلم أتعثر في كل درجة منه.

بينما انهارت جدران العمائر من حول منزلنا.. وتناثر رمادها في كل مكان.. صوت تحطمها العالي يهدر في أذني.

فزدت في سرعتي خشية أن يكسر أحد حجارتها نافذة الدرج.

ثم هرولت عابرًا الشريط، كأني عداء أولمبي.

شريط ثبته رجال الشرطة تحت شعار "شمع آحمر".

ألم أترك مفاتيحي في السيارة؟!

عبرت باب منزلنا الذي زارته الشرطة منذ لا أدري متى.. لأغوص في ظلام سرمدي.

هنا قتلت نفسها.

دماؤها في كل مكان.

الزجاج المحطم يلتمع مع ضوء السيارات التي تمر في الشارع.

كرات لامعة رأيت مثلها من قبل مرارًا.

إنها في كل بوصة من الأرض.

هل أغلقت الباب؟

التفت فرأيته أمامي.

سكينه تلمع مع ضوء السيارات في الشارع.

يا إلهي، كم أنا غبي!

لقد تركت الباب مفتوحًا فدخل اللصوص يا أمي!

– والآن اجثّ على ركبتيك واطلب المغفرة آيها الطفل المشاكس!

وهناك في الركن المظلم يقف صديقي ويصفق.

وعلى الباب تقف جثتها بوجه مشوه خالٍ من التعابير.

حبيبتي التي استدرجتني روحها إلى الفخ.

يلتمع البرق عليها فيزيد المنظر سوءاً.

كأني على باب منزل دراكولا، وقد حاصرني خدمه ليقدموني قربانًا له.

متى بدأت تُمطر؟

فلأطالع السماء الآن كما لم أطالعها من قبل.. ولأتمنى أن تغسل الأمطار ذنوبي ويصعق البرق خطاياي.

أين ذهب سقف المنزل؟

لحظة..

أتراني أحمل أي خطايا؟

ومن منا طاهر نقي أيها الأحمق.

كل ابن آدم خطّاء.

لست عالمًا.. ولا خبيرًا تكنولوجيًا.

لكن كم أتمنى أن أخترع آلة زمن أعود بها للماضي.. وأقتل آدم.

نعم، لم يكن القتل قد سُنّ وقتها بعد.

لكن أترى حلاً آخر لإيقاف نسل هذه الكائنات القذرة، التي تستنفد وتستهلك وتدمر كل ما تراه عيناها؟

فلتنه عملك سريعًا يا أبتاه.. فلم أعد أطيق الانتظار.

لتصحبني الملائكة إلى الجحيم.

ولكم من مرة رأيتهم فيها يحترقون ويتساقطون من السماء كالشهب!!

ويقول عقلي.. انظر هذه أحلامك الوردية تتساقط وتذبل واحدة تلو الأخرى.

ويطالعني سبارتاكوس من فوق الصليب صارخًا.. "لا تحلموا بعالم سعيد".

كلما طرقت بابًا سيجيبك أناس يحملون أقنعة خشبية زائفة.. يعدونك بمستقبل سعيد.

لا تستمع إلى قولهم فكلهم كاذبون.

فلا مستقبل سعيد لكوكب يعيش عليه بشري.

يقول الأذكياء إن أخطر كائن على الأرض هم البشر.

فالقروش والأسود والتماسيح لا يلتهمونك إلا إذا كانوا جياعًا.

فهم لا يفكرون في المستقبل.

المستقبل..الذي تُشن لأجله الحروب.. ويُقتل تحت رايته الأبرياء.

لماذا وُلدت بشريًا؟

لماذا لست طائرًا يرفرف بجناحيه في السماء.

أو سمكة تسبح في البحار بين الشعاب المرجانية.

أو حشرة صغيرة، تتوارى بين فروع الأشجار وأركان الأوراق المظلمة.

لكن ما الفارق الذي سيشكله ذلك إذا كانت بنادق الصيد مصوبة نحو السماء؟ وفي البحار شباك، وفي الأشجار سموم ومبيدات تدمرها، حتى يأتي فأس رجل شجاع ويقتلعها ليصنع منها الورق،

فيكتب عليه شاعر.. كانت هناك شجرة جميلة في الحديقة، اقتلع أغصانها وجذورها رجل أحمق.

كم نحن جنس أحمق!!

أين ذهب أبي؟ أم تراني كنت أهلوس؟؟

يطالعني وجه أمي، التي تقف إلى جانب والدة صديقي تهمس لها.

ثم تتضاحكان!

وفي الركن تجلس أختي تلعب بالزجاج المحطم بآلية مرعبة.

تتساقط كرات صغيرة لامعة من يديها.. لكنها لا تتوقف.

أتساءل متى يعود إليّ عقلي؟ فلم يفدني ذهابه شيئًا!!

يبدو أنني أحتاج أن أفقد ذاكرتي.

أحسست بلمسة باردة على يدي.. نظرت هلعًا، فإذا بها فتاة صغيرة جميلة، بثوب أبيض رائع الجمال.. تمسك بيدي كأنها تعدني أنها ستحميني.

وترتفع السكين مرة أخرى!!

متى عاد أبي؟!

ويتعالى التصفيق، وتزداد الضحكات مجونًا، لكن قبضتها تزداد قوة.

ثم تلمع الشمس في عينيّ فتحرقهما، وأستيقظ في فراشي على دماء زوجتي الراحلة.. لأجد قبضتي محكمة على صورة ابنتي، الجنين غير المكتمل.. فأبتسم.

*****

يوم جديد تشرق فيه الشمس ويفترش البائعون الأرصفة، بينما يفتح صاحب الدكان بابه ويخرج دلو الماء ليرش به الشارع؛ لسبب يجهله الجميع، لكنهم يعلمون أنه عامل إيجابي في زيادة نسبة الرطوبة في الجو حول الدكان.

ربما كانت هذه تعويذة ما لجذب المارة لشراء السلع؟!

يمر بائع الجرائد ينادي بأسامي متتالية، لم تتغير منذ كان جده هو من يبيعها.. ويمر بائع أسطوانات الغاز بطرقاته المتميزة، فتنادي عليه احدى السيدات ذوات الصوت الجهوري، التي لن تندهش إذا وجدوا جثثًا متحللة أسفل أرضية قبو منزلها.

إنه يوم معتاد طبيعي في شارعنا.. أراقبه أنا من زجاج غرفة نومنا المحطمة، واضعًا صورة ابنتي العزيزة على الزجاج، لتشاهد معي المشهد الذي لم ولن تراه عيناها أبدًا.

وضعت الصورة في محفظتي وبدّلت ثيابي.. إنه يوم مهم.. يجب أن أكون في أبهى حلة.. استعدي يا صغيرتي.. سنذهب لزيارة جدك!

كان إيجاد السيارة سهلاً هذه المرة.. وكان إيجاد المشفى أسهل.

على مساحة شاسعة من الأراضي الخضراء يقع مبنى متهالك الأوصال، يحده سور يوحي بخطر ما يقبع خلفه.

ممر حجري يمتد من البوابة العملاقة إلى مدخل المبنى الرئيسي.. يقف على بدايته الحارس الذي يجب أن يتأكد من هويّتك.. ثم يسمح لك بالمرور.

تتابعت دقات قلبي طوال سيري على الممر، مما جعل المشهد يمر ببطء.. مكنني من رؤية الملابس البيضاء المتناثرة في الحديقة حولي.
مرضى وممرضون وأطباء.. كلهم يلبسون اللون الملائكي!

ترى كم من هؤلاء أتى هنا لأنه قتل شخصًا ما؟

وهل كلهم مرضى نفسيون وعقليون حقًا؟ أم أن المشفى بدى أكثر رحمة من الزنزانة وحبال المشانق؛ فقرروا ادعاء المرض؟

ترى هل يتجول أبي بين هؤلاء؟

عند هذه الخاطرة توقف تفكيري وتوقفت قدماي واتسعت عيناي.. ذهبت أنفاسي في رحلة إلى المريخ ولم تعد!

قد يراني.. قد يعرفني.. قد ينقض عليّ من خلفي.

تجولت عيناي في مقلتيهما تحاولان الرؤية قدر استطاعتهما، دون أن تتحرك رأسي.

بدت الأجواء هادئة.. فعادت قدماي للسير.. لكن بسرعة أبطأ.

المبنى الرئيسي قذر المظهر.. بهت لونه بفعل عوامل التعرية.

له باب يئن عند فتحه، كأن خشبه سيتساقط على الأرض بين لحظة أو أخرى.

في المدخل مروحة سقف تصدر صوتًا لا يصدره حوت في عرض المحيط!!

رائحة السلالم الرخامية المزركشة، المميزة لكل المصالح الحكومية التي أكل عليها الدهر وشرب، حتى ابتلت كل خصلة شعر في لحيته.

عند الاستقبال جلست ممرضة شابة تعتبر نفسها حسناء، بلون أحمر الشفاة القاني، والسواد الأعظم فوق جفنيها، والعلكة التي تلوكها كأنها تمضغ لسانها معها.

منظر كان دائمًا كفيلاً بإثارة حمض معدتي.

أتذكر حينها أن من نبهتني لهذه العينة من الفتيات كانت زوجتي العزيزة.. فأبتسم.

أتبدو لك هذه قصة ممتعة؟

لسنا إلا في بدايتها فقط.. فهكذا علمونا في المدرسة.. البداية.. حيث تعرف المكان والشخصيات.. الوسط.. حيث ذروة الأحداث.. والنهاية حيث كل شيء يعود طبيعيًا وتُحل كل المشاكل، أو يتقبلها الإنسان.

يقول "مريد البرغوثي" شارحًا وجهة نظر "نتنياهو":

"إن العرب تعودوا على التأقلم مع ما يفرض عليهم".

دائمًا نتقبل الأمر الواقع، ونبتلع مرارة السوداوية في حياتنا بابتسامة مستسلمة.

ها أنا ذا أكتب لك مستسلمًا، بدلاً من أن أبحث عن سبيل للخروج من هنا.

وبما أن هذه المنحوتة الجدارية تحمل كل مشاعري وكوابيس حياتي، فسأضرب بالقصة العربية والغربية وكل ما كُتب من قبل عرض الحائط، وأسرد قصتي بطريقتي.

لا أهتم بتصنيفها.. فالتصنيف عار.

نصنف أنفسنا تبع الدين والجنس واللون والمادة والاهتمامات والبلدان والحضارة والثقافات والكتب المفضلة والموسيقى المفضلة.. كلما كان بيننا وبين الآخرين عوامل مشتركة.. كلما كانوا أقرب إلى قلوبنا.

أليس هذا بالعار؟

لنعد إلى الحسناء التي تلوك لسانها.

قلت لها إنني أريد زيارة المريض، الذي هو أبي.

فنظرت لي مندهشة، وقالت – لشدة دهشتي – إنه لم يحصل على زيارة واحدة منذ جاءت هي إلى

المشفى.

أترين أني أجهل هذه المعلومة؟!!!!.. لقد كنت لأجن إن كان السجل يحمل زيارة واحدة حتى.

ثم سألت عن درجة القرابة، فقلت لها إنني ابنه.. عندها نظرت لي باشمئزاز.

– ربما كان يجب أن آتي لزيارته كل يوم لأتجنب هذه النظرة النارية!!

ابتسمت ابتسامة محرجة.. ثم صحبتني إلى عنبر الأطباء.. وقالت إن هذا الطبيب سيكون معي في الزيارة؛ لأن المريض يصبح خطراً في بعض الأوقات.

صحبتني إلى غرفة، وذهبت لإحضار أبي.. بينما أشار لي الطبيب الشاب لأجلس، وجلس على الكرسي المقابل لي.

– أعتذر عن أسلوب الممرضة معك.. نحن لا نّطلع الجميع على تفاصيل الحالات.

ابتسمت ثم سألته عما يعاني منه ذلك الرجل تحديداً؟

– إنه مرض نفسي وراثي.. يؤدي إلى اضطراب نفسي حاد.. يصحبه فقدان في القدرة على التحكم

في ردود الفعل.. وخلخلة عقلية.. وهلاوس.. من الممكن اختصار كل ذلك في كلمة شائعة تسمى.. انفصام.

إذن هناك مسمى لما يعاني منه ذلك الكائن.. لكن ما الذي يعنيه الطبيب بأنه وراثي؟!

هل يمكن أن أصاب به أنا أيضًا؟!

لكن الباب انفتح، ودخلت الممرضة تمسك بيده.. قبل أن أتمكن من الحصول على إجابة لسؤالي.

أبي.. ليس كما أتذكره بالطبع.

نحل كثيرًا.. شحب لونه أكثر، وتناثر النمش على صفحة وجهه البيضاء.

تناثرت التجاعيد وملامح المرض الواضحة على جسده بالكامل.. يمسك في يده تلك القطعة الحديدية التي لا أعرف اسمها، التي يتم تعليق المحاليل الطبية عليها، فتسير إلى جواره بعجلاتها التي تصدر صوت أزيز معدني رخيم.. بينما تخترق الإبرة يده الممسكة بها.. بطريقة تشعرك بأنها ستناثر الدم في وجهك في أي لحظة.

شعره أصبح خفيفًا يكسوه الثلج.. ليغطي مشيته الهادئة المتمهلة.

باختصار.. إنه لا يمت بصلة للرجل الذي كان يطاردني في كوابيسي.

لكن الشيء الوحيد المشترك بينهما هو العين الثاقبة ونظرتها المجنونة.. وابتسامته الظافرة.

أخذ يسير ببطء، وعيناه لم تتحولا عن عينيّ.. كذلك قتل الفضول عينيّ، فجمدت رعشاتهما على عينيه.

أجلسته الممرضة ببطء على الكرسي.. ثم تنحنت وقبلت وجنته.. فهمس لها بشيء جعلها تضحك في خلاعة، ثم تستأذن بالانصراف ناظرة للطبيب.. أن "ها هو ذا أمانة في رقبتك".

أتخاف عليه مني؟! حقها.. فهي تراني ابنًا لا يعرف طريقًا للبر.. جاء ليعكر صفو بال والده ويجرح مشاعره المرهفة.

جلس الطبيب على الكرسي المجاور لأبي، يطالع كلانا في شك.

بينما ثبتت عيناي على عينيه، وعيناه على عينيّ.

ربما استمر ذلك ساعة.. وابتسامته ثابتة لا تشوبها شائبة.

جالت عيناه مرتين على جسدي.. لا تقلق.. هذه أفضل حلة رسمية لدي.. وهذا أغلى حذاء.. حتى الساعة كانت هدية من زوجتي، استمرت في جمع ثمنها لعدة أشهر.

كم أنا سطحي!!

هو لن ينظر إلى ملابسي.. إنه ينظر إلى أعماق روحي لينتزع منها كل رغبة في الحياة.

انتبه إلى وجود محبس زواج في يدي، فأشار إليه قائلاً:

– تزوجت؟

صوته كأنه يأتي من أعماق بئر قديمة صدئة.. أكنت أخاف من هذا الرجل، الذي يبدو القبر إليه أقرب من دورة المياة؟!

هززت رأسي أن نعم.

فاتسعت إبتسامته.

– ألديك أطفال؟

ارتعد جسدي قليلاً، لكني هززت رأسي أن نعم.

فضحك بصوت عالٍ..

– لم يبق أمامك وقت طويل إذن.. الأعراض تبدأ غالبًا بعد الزواج.. حينما يبدأ صراخ الأطفال حولك يتزايد.. وتزداد بشاعة كوابيسك.. ثم فجأة.. تجد نفسك تتحول لما هو مقدر لك منذ البداية.

اندهش الطبيب من كلمات أبي وانحنى يدونها.. بينما نظرت إليه مستفسرًا.

– إنها لعنة العائلة يا بني.. صدقني كان الموت ليكون أفضل لك من هذه اللعنة.

عندها سرت القشعريرة في جسدي.. واتسعت عيناي.. الآن أفهم.. إنه مرض وراثي.. أليس كذلك؟!

– أردت قتلنا حتى لا نصاب بالفصام؟!

حرك كتفيه بتلك الإشارة المثيرة للاستفزاز، التي تعني.. هاه.. ربما!!

– أسباب كثيرة.. لا أحتاج لأوضحها لك أو لهم.. لكن أتعلم..؟

صمت برهة وأشار إليّ أن أقترب.. ثم همس:

– أندم كثيرًا كلما تذكرت ما حدث.

كادت الدموع تنتفض من عينيّ.. لكنه أضاف:

– كان لا يجب آن آتركك مختبئًا آسفل الفراش.. كنت لأنتهي بسرعة قبل أن يستجيب الجيران لصراخ أختك.

اتسعت عيناي في ذهول، ونظرت إليه:

– كنت تعلم؟!

– يا للأطفال!!

ثم أطلق ضحكة مخيفة، وأضاف:

– ليلتها مرت سيارة مسرعة أضاءت الغرفة للحظة، فرأيت انعكاسك واضحًا في المرآة.. لكني أردت أن أرى ما ستفعله.. أختك كانت ذكية.. عندما رأتني أقتل والدتك.. أسرعت تستخدم الهاتف فلم يعمل.. ففتحت الشباك وصرخت.. لكن سكيني كانت أسرع من استجابتهم.

تبع جملته الأخيرة بغمزة.. ثم أغلق عينيه مضيفًا في نشوة:

– صوت اختراق السكين لجلدها وفقرات ظهرها.. ثم شهقة خرجت بخروج روحها.

كان الطبيب يكافح كي لا يفرغ محتويات معدته.. يا للأطفال!!

ذكرتني تلك النشوة بنشوة صديقي وهو يتذوق دماء والدته.. تبعها صوت تحطم فقرات عنقه بين يديّ!!

اقشعر جسدي وانتفض كتفاي.. ولم أتمالك الدموع.

– لا تبكِ يا فتى.. الرجال لا يبكون.

نهضت ووضعت إصبعي أمام عينيه..

– ربما كان الموت أفضل.. إنه أفضل بكثير.. لكن أتدري ماذا؟ طوال حياتي كنت أكافح لأبقى حيًا.. حتى ما إذا متَ قبلي.. جئت إلى قبرك وتمنيت لك الرحمة.. ثم بصقت عليه ورحلت مبتعداً.. عندها فقط سأقول مرحبًا للموت.

ابتسم والدي.. ثم صفّق بنفس الآلية المرعبة التي كان صديقي يصفق له بها بالأمس..

– لماذا لم تقتلني إذن؟!

نظرت إلى عينيه وقلتها في حزم:

– لأني لست بقاتل.

اتسعت ابتسامته ونظر إليّ نظرة ذات مغزى.. ثم قال هامسًا:

– حقًا؟!

*****

من تقارير الشرطة:

بتشريح الجثة تم التأكد أن سبب الوفاة هو نقص الماء والغذاء، الناتجان عن حبس المجني عليه في تلك الغرفة.

اقتحمت الشرطة المكان بعد أن تلقت بلاغًا بوجود أصوات تنبعث من منزل مهجور.. لم يجرؤ سكان المنطقة على الاقتراب من المنزل لأنهم لا يعرفون الملاك، ولم يحصلوا على تصريح بذلك.

كما أنهم يخشون من سمعة المنزل القديمة، حيث كان مسرحًا لجريمة قديمة.

وُجدت الجثة في إحدى غرف المنزل.. كانت الغرفة مغلقة.

يفيد تقرير الطبيب الشرعي أن المجني عليه بقي على قيد الحياة فيها مدة تزيد عن عشرة أيام.

وأن الوفاة تمت قبل أربعة أيام من اقتحام الشرطة للمكان.

ومن معاينتنا للغرفة وجدنا كتابات تم نقشها بسكين في الحائط، يبدو أن المجني عليه قام بنقشها خلال الأيام العشرة.

تبدأ بنقوش وكلمات واضحة.. ثم تنتهي بكلمات متبعثرة، يتزايد حجمها ولا تربطها دلالات محددة.

قال الطبيب إن هذا طبيعي نتيجة الحبس الانفرادي ونقص الغذاء والماء.

حيث يكون الشخص شبه طبيعي.. ثم يصاب بانخفاض ضغط الدم.. وإذا استمر الوضع طويلاً يصاب بارتفاع في درجة الحرارة، وهلاوس شديدة وفقد القدرة على التركيز.

بعدها طبعًا.. تحدث الوفاة.

وبمعاينة....

*****

أتراني أهلوس الآن؟

لم أعد أرى أحلامًا في نومي.

يا مسكين!!

الحياة صعبة على الغرباء.

آريد آن آنام ولا آستيقظ.

حبيبتي!

قاتلة!

يا للأطفال!!

لماذا قُدّر لي أن أطوف طرقات عمري مع المجانين؟

أسرد لك الحكاية وأنسج خيوطها على الحائط كالعنكبوت.. وأعلم أني سأسقط فيها كالذبابة بعد أن أنتهي منها.

فأر لطيف.

فقد الإحساس بالزمن.

ينام فترات متقطعة.

أغشي عليه بالأمس وهو يكتب، ولم يكمل الحكاية ولن يكملها.

فهو لم يعد يعرف الفرق بين الواقع والخيال..

ربما هي الحمى؟!

لكن ما رأيته اليوم لم يكن خيالاً.

اليوم رأيتك وحادثتك.. أقسم على ذلك.

استيقظت فوجدتك أمامي.. تبتسم لي من الركن المقابل.. وتقترب.

دقت ساعة موتي إذن.. صدقني، سأكون ضحية مطيعة ولن أقاوم.

لكن الظلام منعني من رؤية وجهك.

جلستَ تقرأ ما كتبتُه.

كيف تقرأ في الظلام؟

ثم نظرت إليّ بغضب.

حقك.. كان يمكنني أن أنقذ حبيبتك القاتلة لكني لم أفعل.

– لماذا؟

لا أعلم.

– لماذا؟

لأنها لا تحمل قلب أمي!

– لماذا؟

لآن حبيبتي كانت ملاكًا.. وهذه ليست حبيبتي.. هذه قاتلة أطفال.

– ألم تستطع أن تمنحها في عقلك شهادة "قتل للدفاع عن النفس"؟

الدفاع عن النفس ضد طفل صغير!!

– وما يدريك.. لعل روح صديقك خرجت من جسده لتولد مرة أخرى في جسد الصغير؟ أليس هذا ممكنًا؟! عندها سيكبر الطفل.. ويأتي للبحث عن والدته الحقيقية.. وعندها!!

يجد قاتله؟!

– عصفوران بحجر واحد!

أتمنى أن تكون روحه قد ذهبت إلى الجحيم مباشرة.

– أتتمنى له العذاب وأنت قاتله؟

كان يجب أن أقتله لأدافع عن نفسي.

– هراء.. أنت لا تختلف عنهم كثيرًا.. أبوك وصديقك وحبيبتي.. لماذا؟

لأني.. لأني..

– لآن الجميع قتلة.

ربما..

– أمك قاتلة أيضًا؟

لا تتفوه بحرف واحد عن أمي أيها القذر.

– قاتلة.. هي التي دفعت والدك ليفعل فعلته تلك.

كلا لقد كانت ملاكًا طاهرًا نقي القلب.

– حقًا؟ أم أنك كنت أصغر من أن ترى السوء في قلوب من حولك؟

– أنت حتى لم تخمّن أن والدك هو من كان بغرفتِك، حتى رأيت السكين في يده.

اخررررررررس.. كلاااا..

– اصرخ وانكمش وأغلق أذنيك، لكنك ترى الواقع.. لقد قتلتها.. قتلت الحنان الوحيد الذي وجده قلبك.

ربما كان الموت راحةً لها!

– ربما إذا لم تدفعها للاحتفاظ بالطفل كانت ستبقى متماسكة؟

لم آرغمها على ذلك.. هاهي مذكراتها.. قالت إني..

– توقف عن خلق الأعذار.. قاتل.. أبوك قاتل.. وأنت مثله في كل شيء.. الفارق الوحيد هو أنه معترف بالحقيقة، أما أنت فتنكرها، وكأن إنكارها سيجعلها تختفي.

(لحظة صمت طويل.. ونيران تلتهب في أحشائي.. لم يعد لدي دموع لأبكي.. لذلك اكتفيت بالنشيج)

– الكون مليء بمن ينكرون الواقع، ويهربون منه قائلين إنه خيال.. أنه مجرد أفكار سوداوية.. أفكار ستؤذيهم.. المجتمع يرفض الاعتراف بالواقع هو الآخر.. فإذا اعترفت به لنفسك سينكره عليك المجتمع.. حينها تصبح ممزقًا شريداً وحيداً.. وبعدها بفترة تعتاد الصمت.. بعدها بفترة تُمسي أخرس.

لماذا إذن أعترف به لنفسي؟

– وهذا رأي الجميع. لذلك ينكرونه.. لكن ضميرهم يقتلهم كل ليلة ألف مرة.

لا أحد يحب أن يعيش غريبًا.

– فلنمت جميعًا كالفئران في المصائد إذن؟!

لهذا تقتلني؟

– ربما.

إذن لا فارق بينك وبيني؟

– أجل (وهنا تعود الأفكار السوداوية لتملأ ذاكرتي)

لقد كانت أصابعها قاسية.

– ربما كنت تقسو عليها في حياتها؟

ربما..

– ربما لم تستجب لنداءاتها الصامتة التي كانت تحملها عيناها؟

ربما..

– ربما لأنك تشتاق الآن إلى جوارها؟

هذا أكثر شيء أريده الآن.

– وأنا أيضًا.

أكاد أسمع الموت يناديني كعزف ناي حزين.

– إذن حان موعد رحيلك.

أعتقد أن للموت وحشة كوحشة الحياة.. فأي فارق بين بقائي ورحيلي.

– كالفارق بين كونك بشراً وكونك طائراً لا يؤذي أحداً.. أليست هذه كلماتك؟

لا تسخر من خواطري.. هي أفكار رجل يناديه المنادي.

– لو كنت مكانك لأطعته في صمت ورحلت.

هل سيسودّ وجهي كما اسودّ وجهها؟

– من قال إنه أسود!!

أنا لم أره!

– لعله كان أبيض كأجنحة الملائكة.

لا تحدثني عن الملائكة.. لا يوجد في هذا الكون ملائكة.

– أحدثك عن وطنك.. أليس هذا ما كنت تصفها به؟

لا تتلاعب بكلماتي.

– سأصمت إذن.

لا.. لا تصمت.. تكلّم حتى تؤنس وحدتي.

– سأصمت لتعتاد صمت القبور.

ألن يزورني أحد؟

– ماذا يضر الشاة بعد موتها!!

صحيح.

– أليست لديك كلمات أخيرة؟

لا تحلموا بعالم سعيد.

– أي بطل من الأبطال أنت حتى تلقي المواعظ؟! قذر يموت وحيداً كالجرذ العجوز من الجوع والعطش.. ماذا سيحكي الناس عنك؟ أوه، مسكين تحطم قلبه بموت زوجته؟! ربما سيمدحك زملاؤك في العمل، ويقفون دقيقتين حداداً على روحك، قائلين إن موتك راحة لك.

وأنت.. ماذا ستقول؟

– فأر لطيف.

(قلتَها بابتسامة جانبية، جعلتني أقهقه بما تبقى لدي من طاقة، وأتساءل بخبث)

آلن تلحق بي آنت الآخر؟ ربما طاردك شبحي؟ عندها ستموت منكمشًا في سريرك كالأطفال.. أنصحك أن تتبعني إلى العالم الآخر في هدوء.. ربما نجد هناك سلامًا لم نجده هنا.. هيا، فالموت يناديا..

(أطلقت ضحكتك.. وعدت للجلوس في ركن الغرفة قائلاً)

– الفكرة لا تموت يا عزيزي..

*****

خرجت من عند أبي محطم الفؤاد مشتت العقل.

كنت آمل أن أواجه مخاوفي وأفيق منها.. كنت آمل أن أعقد صلحًا مع الماضي؛ لأستطيع أن أرثي عائلتي وطفلتي دون أن أحمل ضغينة لأحد.

أردت أن أكون لها أبًا مثاليًا لا يخاف كابوسًا.. لا يخاف ذكريات واهنة من الماضي، لم يعد لها أساس في عالمنا.

لكن ها أنا ذا قد غرقت بلا رجعة.

لم أرد أن أعود للمنزل الذي تغمره الدماء.. فأخذتني قدماي لمنزل والدي.

منزلنا الذي لم تطأه قدم آدمي منذ أعوام كثيرة مضت.

كان الأمر مرعبًا.. مؤلمًا.. يثير الحنق كثيرًا.

لكني كنت أحتاج لألفة قديمة مفقودة في روحي.

جلست لأيام شريدًا.. أنتقل من الكرسي للسرير.. ومن السرير للنافذة.. لم أرد الخروج.. لم أرد أن أرى العالم.

أتصفح مذكرات زوجتي العزيزة.. أقلّب في ملابس أمي مستنشقًا عطرها.. متأملاً صورة زفافها.

أداعب عرائس أختي ذوات الشعر الأشقر، الذي ملأته الأتربة.

أرى في أحلامي مسابقة لطيفة بين أبي وصديقي.. يتنافسان من سيتمكن من إيذائي بصورة أكبر.. من سيعذبني أكثر.

والرهان على موت أختي بالسكين، أو التفاف السلسلة على عنق صديقي.

وغالبًا ما يفوز صديقي، لأن أبي يحب الرعب النفسي ثم الموت الرحيم.. بينما صديقي يعرف كيف يفكك

آوصال ضحيته وينتهكها بكل السبل، قبل آن يقتلها.

لذلك تخترق السكين أختي.. فأنتفض غاضبًا، وأرسل ذراعي المقطوعة لتسحب السلسلة حول عنق صديقي.. فيموت هو الآخر.

قضيت أربعة أيام أحمل نفس الكابوس، ولكن بحيل أكثر تتغير كل يوم، كعادة خيالي الواسع.

وبعد الأيام الأربعة.. أظلمت المنطقة والمنزل بالكامل.. فظننت أنه انقطاع تيار كهربي.. لكني سمعت صوت أقدام تقترب مني في الظلام.

حاولت الهرب أو البحث عن مصدر ضوء.. لكن بلا جدوى.

شعرت كأني طائر يطرق أطفال أركان قفصه عليه، فيتقافز من غصن بلاستيكي إلى الآخر، محاولاً الهرب أو الاختباء.. لكن الحقيقة أنه لا مفر!

صوت الأقدام استمر في الاقتراب.. ولا أذكر أي شيء حدث بعدها.

إلا استيقاظي في هذه الغرفة.

ولكن أتعلم؟

آنا سعيد حقًا بلقائك.

*****

سقطت أشعة الشمس على عينيه، فجاءه ضوء جفنيه الأحمر ليؤرق أحلامه.

ربما كان النوم في وضعية الجلوس متعبًا.. خاصة عندما تنام على الأرض الجرداء، ببرودة قرميدها القاسية لأيام.. لكن وجود ضوء للشمس بعد هذه المدة متعب أكثر.

يفتح عينيه ليجد أمامه نافذة بإطار أبيض، وستائر شفافة تتمايل في ضوء الشمس القرمزي، المميز لذلك الوقت السحري الملهم للشعراء.. ذلك الوقت بين العصر والغروب.. حين تتمنع الشمس عن الأرض.. فتشتعل السماء غيرة.

كم يحب هذا اللون.. لذلك لم يمتنع عن الانسياق نحوه متحاملاً على نفسه.

ولدهشته لم يشعر بالتعب.

فأكمل سيره حتى وصل إلى النافذة ووقف مغلقًا عينيه.. يتوسل للشمس لتخترقه.. لتحرقه.. لتمر خلاله فتزيل الظلام بداخله.

سرت في جسده قشعريرة الدفء، ففتح عينيه ونظر من النافذة.

أمامه امتدت أرض خضراء نقية.. يتمنع عنها قرص الشمس.. بينما أخذت مجموعة من الطيور تحلق تجاه ضوئها.. فعلم أنهم يشعرون بما يشعر به.

وأسفل النافذة تمامًا وقفت هي.

بعينيها العسليتين وثوبها الأبيض الخفّاق.

تتراقص في أشعة الشمس مداعبة بيديها سنابل القمح الذهبية.

ابتسمت عينيه وتقافز قلبه.. ثم ترقرقت عيناه بالدموع وشعر.. بالحب.. بالعشق.. شعر بأسراب من الطيور تنطلق في أحشائه هائمة بها.

شعر بالاحتياج.. بالاشتياق.. بأنه يريد أن تذوب رائحة عنقها وشعرها مع رائحة قهوة الصباح بين يديه.

التفت حوله يبحث عن مخرج.. فاكتشف أنه في غرفة مستديرة بيضاء.. لها باب أبيض بزجاج أزرق براق، يعكس لون الغروب بنكهة بنفسجية.

انطلق نحوه وأدار مقبضه لينفتح.. ويجد نفسه على بداية درج مديد.

درج مستدير رخامي آبيض.. له حاجز حديدي، طّلي باللون الأبيض أيضًا.. وقد غُطت جدران الدرج بالنوافذ.

كان يراها من كل النوافذ.. تتراقص وتدور حول نفسها، محلقة بثوبها كالفتيات الصغيرات.

وبمجرد أن رآها ساده إحساس الشوق، فانطلق يقطع السلم درجة تلو درجة.. تلمس يده الحديد البارد.. ويرفرف قلبه من النافذة الدافئة.

كان يستطيع أن يرى نهاية السلم، لكنها كانت تبتعد وتبتعد كلما اقترب منها.. أو ربما كذلك خُيل له.

بعد فترة وصل لها أخيرًا.. ساحة واسعة رخامية بيضاء أيضًا.

قطعها راكضًا حتى وصل إلى الباب الزجاجي الضخم المفتوح أمامه.

وخرج يبحث عنها.

تلفت يمنة ويسرة.. لقد رآها من النافذة.. وهاهي النوافذ تمتد أمامه.. لقد كانت تقف هنا تمامًا.

التف حول المبنى الحجرى الذي نزل منه لتوه.. وآخذ يتلفت حوله.. وقد حنّت الشمس للغروب.

لكن بلا جدوى.. كأنها لم تكن هنا من الأساس.

لكن قبل أن يبادره عقله بأي أفكار، انتبه لذلك المبنى الرخامي الأبيض أمامه.

مستدير بأعمدة رومانية وسقف ذي قبة بارتفاع طابق واحد.. تصل بين أعمدته ستائر شفافة تتراقص مع الريح.

اتجه إليه مفتونًا بسحر مظهره.. آملاً أن تكون هناك.

وبمجرد أن أزاح الستائر حتى رآها.

نائمة على قاعدة رخامية مرتفعة عن الأرض.. تمسك في يديها باقة من الزهور البيضاء، التي يربطها ببعضها شريط أبيض ناعم ينسدل على يديها.

ذكره المشهد بقصص بياض الثلج والأميرة النائمة.. حين يأتي الأمير الشجاع ليجد أميرته الحسناء نائمة بين الحياة الموت على فراش غريب.. تضم إلى صدرها باقة من الزهور لتزيدها بهاءً.

ضحك من الفكرة وصعد الدرج المؤدي لها، ثم وضع يده على رأسها ليربت على شعرها.

لكنها لم تستيقظ.

هل عليه أن يقبّلها الآن كما يفعل الأمير في القصص دائماً؟

لم يكن لديه وقت للإجابة.. فقد أخذ الشريط الأبيض الذي يحيط بزهورها يطول.. ويطول.. ويلتف حول جسدها.. بينما يقف هو مذهولاً!!

لا يدري ما الذي يحدث.. ولا ما عليه فعله!!

حاول هزها لتستيقظ وتنهض، فلم تتحرك.

حاول أن ينزع باقة الزهور ليلقيها بعيداً، فلم تتزحزح من موقعها.

لم يجد بدّاً إلا أن يواجه ذلك الشريط.

أخذ الشريط يلتف حولها مغطيًا جسدها كالمومياوات.

بينما يكافح هو ليقطعه بيديه العاريتين.

لكن الشريط كان يمتد أكثر وأكثر.. وكلما قطع منه جزءاً تكاتفت خيوطه الباقية لتعيده كما كان!

لكنه لم يستسلم.. آخذ ينبش في الآقمشة مزيحًا لها، كما ينبش الكلب بحثًا عن العظام.

لكنه لم يستطع رؤية وجهها حتى!

كان الشريط يلتئم بسرعة أكبر من سرعة يديه.

لا فائدة.. لا فائدة.

وعندها جاءه ذلك الصوت.

صوت همس وبكاء يأتي من بعيد.

أتبكي؟!

لا تبكي يا حبيبتي.. لا تقلقي.. سأخرجك من هنا.

عندها لاحظ ما يحدث حقًا.

كانت بطنها – أو المكان الذي يُفترض أن تكون فيه بطنها، تحت الأقمشة البيضاء – تكبر.. وتكبر.

ابتعد عنها مبهوتًا.. وأخذ جسده يرتعد.. ارتمى على الأرض، وضمّ ساقيه لصدره، ثم أجهش في البكاء.. لا فائدة.. سيفقدها مرة أخرى.

ومن بعيد لمح أخته تلعب مع فتاة صغيرة على العشب.. وتركضان خلف بعضهما.. وصوت

ضحكاتهما يعلو من حوله.

لكن صراخًا تعالى من تحت أحراش الأشرطة المحيطة بحبيبته فجأة.

فانتزعه من شروده.. وعندها لم يتمالك نفسه.. وانقض على الأقمشة بأقصى قدرة لديه.

سيزيلها، سينجح.

بينما تتسع الكرة التي تمثل بطنها، وتتسع.. وتعلو بما عليها من أقمشة.. ويتجنب هو النظر إليها كي لا يفزعه المنظر.

ومن وسط الأقمشة.. امتدت أصابع دقيقة.

تمكنت من التسلل بسهولة دون أن تحاصرها الأقمشة البيضاء.

يد رمادية صغيرة ناعمة.

أخذت تمتد حتى وصلت إلي يده.. فأمسكت بها .

عندها تجمد في مكانه.. ونظر إلى يده.. فرأى تلك الأصابع.

عندها انحدرت دموعه التي جمدها الفزع منذ زمن.

ثم التفت إلى منبع الأصابع.. فرأى عينين تبرزان من وراء الأقمشة.

عينان مغمضتان.. ما لبث أن اقترب منهما حتى انفتحتا عن آخرهما، ومنحتاه نظرة شيطانية اقشعر لها جسده بالكامل.

فتعثر وسقط.. فإذا بالشريط يمتد، مع نظرة الصبي الشيطانية ليحاول حصاره.

أخذ يركله بقدميه دون فائدة.. أحاطته الأقمشة، وجعلته مومياءً أخرى.

ومن بعيد سمع صوت صراخ أخته..

وظلت العينان المرعبتان تحدقان فيه، حتى غطت الأقمشة وجهه.

عندها أغلق عينيه وصرخ.

صرخ بكل ما يملك في أحشائه من طاقة.. صرخ ليحمل كل الطيور على المغادرة قبل أن تصبح النجاة مستحيلة.

وفجأة جاءه ضوء أحمر يملأ عينيه.. ففتحهما ليجد أمامه النافذة!

حاول تحريك قدميه ويديه، فإذا بها تستجيب لنداءاته.. لم يعد مكبلاً.

نهض بسرعة لينظر من النافذة، فوجدها هناك.

عندها قرر أنه سينقذها هذه المرة.. سينقذها مهما كلفه الثمن.

قفز الدرجات بسرعة.. عبر الفناء.. لم يجدها.. اتجه إلى المبنى الروماني.

وجدها نائمة.. قفز لينتزع الزهور من بين يديها.. فاعتدل جسدها.. وفتحت عينيها.. كانت تحمل نظرة الصبي الصغير..

وعندها بدأ الشريط يلتف حولهما معًا!

فأغلق عينيه.. وعندما استيقظ وجد أمامه النافذة.

حاول مرة أخرى.. ومرة أخرى.. ومرة ومرة ومرة و..

ثم جاء ضوء الصباح فآذى عينيه.

انتفض باحثًا عن النافذة.. لكن هذه المرة استغرقه الأمر فترة حتى اعتادت عيناه الضوء.. فاكتشف أنه ليس في ذلك المكان المكتسي بالرخام الأبيض.

كان في نفس مكانه المرهِق.. إلى جوار الحائط في الغرفة التي حُبس فيها.. حيث جلس يكتب حتى غالبه النوم.

إنه لا يحلم الآن.. يستطيع أن يشعر بالألم الشديد في أوصاله، والدماء الهاربة من عروقه.

إنها إشارات قاسية.. لكنها تكفي لتخبرك أنك حي.

أنك روح هائمة تحتل جسداً فانيًا.

أنك لم تعد محاصرًا في كابوسك المخيف.. وقد عدت إلى أرض الواقع.

كانت الحمى قد إزدادت سوءاً، لدرجة بات معها الموت يترصده بعينيّ صقر جارح.

اعتادت عيناه الضوء بعد فترة.. كان يفكر فيما سيكتبه اليوم لينهي به منحوتته الجدارية.

ربما يضيف بعداً سياسيًا للموضوع.. ربما يوضح وجهة نظره في أحداث حيرت العالم.

لكن يا ترى من أين يأتي هذا الضوء الآن؟

فتح عينيه لينظر أمامه، وحينها رآه مرة أخرى.

سجّانه يجلس أمامه في الركن المقابل.. يجلس تحت النافذة التي يخترقها الضوء فيخترق عينيه.. ضوء منتصف الظهيرة القاسي، الذي جعل النظر المستمر إليه أمرًا مستحيلاً.

– أتنتظر موتي؟

ابتسم له السجان، فأكمل:

– لا أعتقد أن الأمر سيطول.

حاول الاعتدال في جلسته، ثم نظر إلى السجان قائلاً:

– إن الكوابيس تزداد سوءًا!!

ضحك السجّان ضحكة عالية:

– على الأقل لم تعد تحلم بالمرايا.

مرت غيمة في السماء خارج الغرفة، فحجبت الضوء قليلاً عن النافذة..

عندها اتسعت عيناه في رعب.. وهبّ من مكانه ناظرًا خلفه.

إنها النافذة.. النافذة خلفه!!

نظر إلى الرجل الجالس أمامه، فوجده يتخذ نفس الوضعية التي يتخذها هو!!

– هذا مستحيل!!

اقترب أكثر من الجدار المقابل، يحبو على يديه وقدميه.

إنه يحمل انعكاسه!!

إنها مرآة!!

وقف على قدميه بصعوبة.. ثم تلفت حوله.

لكن إضاءة النافذة لم تكن بالقوة الكافية، لأنها كانت شبه مغلقة.. اتجه إليها وفتحها عن آخرها، ثم التفت يتأمل تلك الغرفة.

إنها غرفته حيث كان ينام في طفولته.. هذه النافذة التي داعبته ظلالها المخيفة وأرّقت عينيه لليالٍ عديدة.. وهذه المرآة المعلونة التي سببت له الكوابيس طوال حياته.. تلك التي رآه فيها والده في تلك الليلة المشؤومة.

هاهي قطرة الدم التي سقطت من سكين والده وتناثرت أجزاؤها.. تُمثّل بقعة جوار فراشه.

– مامعنى هذا؟!

اتجه إلى الباب فوجده مغلقًا كما كان.. بحث عن المفتاح دون أن يجده..

كان جسده يتهالك بسرعة أكبر الآن.

لكن صوتًا أتاه:

– لا جدوى مما تفعله.. تأخرت كثيرًا.

كان الصوت صادرًا من المرآة.

اتجه إليها صارخًا:

– ما معنى هذا؟!

كانت المرآة لا تحمل انعكاسه هذه المرة.

بل انعكاسه الكابوسي المعتاد.

ذلك الذي اسودّت جفونه.. ذلك الانعكاس صاحب النظرة الغريبة والابتسامة المختلة عقليًا.

هزّ انعكاسه كتفيه.. أي أنه لا أدري..

– إنه المرض الوراثي الملعون، أليس كذلك؟!

أومأ الانعكاس، فنظر إليه في هلع وأضاف:

– أنا مصاب بالفصام؟! هذا مستحيل.. أتعرف ما يعنيه هذا؟!

لم يجبه انعكاسه.

– يعني أنني من سجن نفسي هنا.. يعني أنني من يدفعني للموت!!

ابتسم الانعكاس.. حينها بدأ هو يتلفت حول نفسه..

– أين وضعت المفتاح؟ بل كيف لا أتذكر أيّا من هذه الأشياء؟!

تجمد في مكانه لحظة، ثم التفت مرة أخرى إلى المرآة:

– مهلاً.. أنت هلاوس أيضًا.. الانعاكاسات لا تملك شخصية مستقلة!

أجابه انعكاسه هذه المرة:

– لا تنقص من مكانتي.. لست مجرد هلوسة وانعكاس.. أنا هو أنت.. أنا الحقيقة.. الجزء منك الذي لا تريد أن تراه أو تسمعه.. الذي تُنكر وجوده.. والآن.. تنعتني بالهلاوس!!

حدق في المرآة غير مصدق..

– هيا.. تعال معي إلى حيث تنتمي.. آسلم روحك لتتحرر.

– أأنت مجنون؟!

– لماذا تريد الحياة؟ بل كيف ستحيا الآن وأنت بهذه الحالة؟

– سأقفز من النافذة.

ضحك الانعكاس.. ونظر إليه بإشفاق..

– لا فائدة.. حقًا.. فأر مسكين.

كانت الحمى تزداد سوءًا.. لدرجة لم تجعله يقوى على الوقوف.. فسقط على ركبتيه.

– يبدوا أنها النهاية حقًا.

– لا تخف.. لقد كنت تحلم بهذا كل ليلة.. ربما يكون عالمنا.. أفضل من عالمك!

مد يده ليلامس زجاج المرآة.. لكنه توقف قبل أن يصل إليها.

– لا.. لن أذهب الآن.

– لماذا؟ لا أركان مظلمة بقيت لتختبئ فيها يا عزيزي.

– أعلم.. لكن عليّ أن أنهي هذه المنحوتة أولاً.. عليّ أن أكمل قصتي.

ضحك الانعكاس وأشار إليه ليكمل.. فتحامل على قدميه ونهض، وسطر آخر جملة في قصته.

*****

من تقارير الشرطة:

كانت الغرفة مغلقة من الداخل.. ولم يكن هناك أحد مع الضحية. ما يعني أنه قد حبس نفسه بداخل الغرفة.

لم يستدل المحققون حتى الآن على مكان المفتاح.. لكن أحدهم اقترح أنه قد يكون قُذِف به من النافذة.

آخر كلمات نقشت على الجدار، وهي الأكبر حجمًا.. ويبدو من المعاينة المبدئية أن المجني عليه ظل يحفرها لفترة طويلة حتى تُوفي.. كانت..

لقد حالفك الحظ هذه المرة.

تمت بحمد الله

للتواصل مع الكاتبة

https://www.facebook.com/eng.misha
https://twitter.com/EngMisha